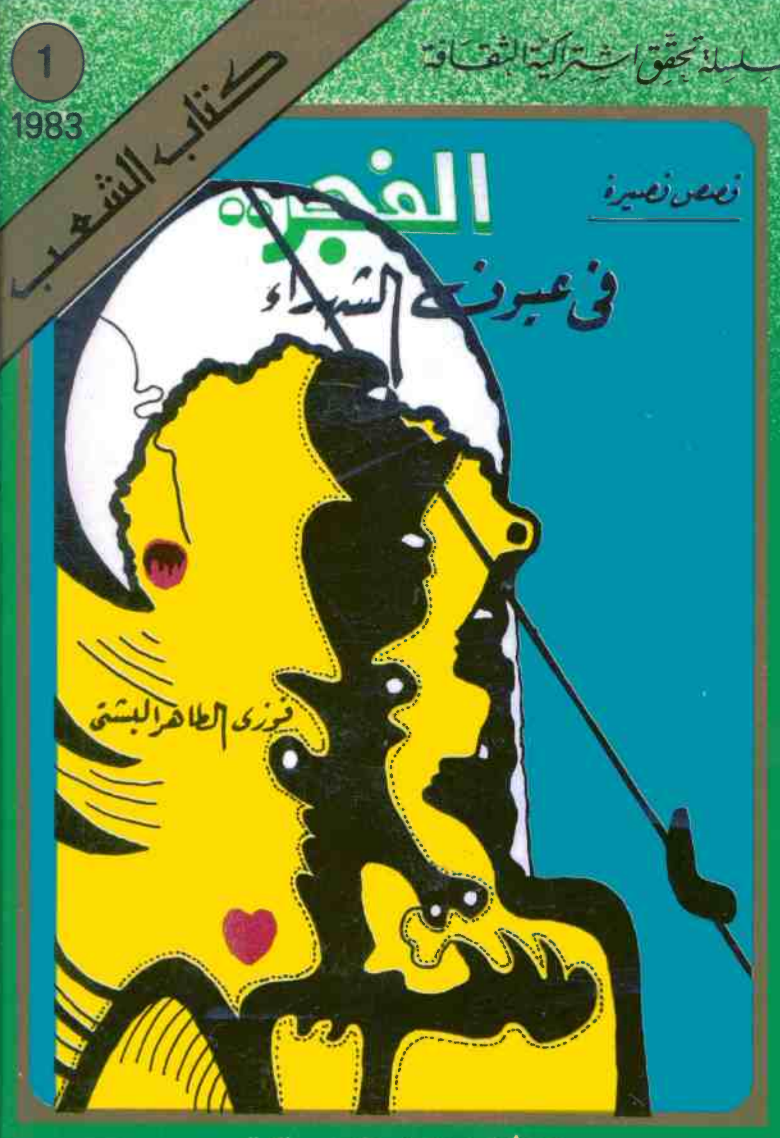


المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

الفجر
في عيون الشهداء

كتاب الشعب

فوزى الطاهر البشتى

الفجر.. في عيون الشهداء

قصص قصيرة

مَنشورَات

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان

طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

العدد 1 — يناير 1983

الطبعة الأولى

1392 و.ر ـ 1983 م



المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

حقوق الطبع
والاقتباس والترجمة
محفوظة للناشر

انك الأخضر ، لا يشبهك الزيتون ، لا يمشى اليك
الظل ، لا تتسع الأرض لرايات صباحك
انك الأخضر مثل الصرخة الأولى لطفل يدخل العالم
ومثل الطلقة الأولى لجندى
رأى قصر الشتاء الملكى
وانتظرناك على النرجس
أجراساً وقتلى
وخلقناك لكى تخلقنا
ضوءاً وظلاً
فلتجدد أيها الأخضر موتى وانفجارى
ان فى حنجرتى عشرة آلاف قتيل
يطلبون الماء
جدد أيها الأخضر صوتى وانتشارى

***

ايها الأخضر فى هذا السواد السائد ،
الأخضر فى بحث المناديل عن النيل
وعن مهر العروس
الأخضر فى كل البساتين التى أحرقها السلطان
والأخضر فى كل رماد
لن اسميك انتقال الرمز من حلم الى يوم
اسميك الدم الطائر فى هذا الزمان
واسميك انبعاث السنبلة
فلتواصل أيها الأخضر لون النار والأرض
وعمر الشهداء .

محمود درويش

مقدمة

هل لا بد للناقد أن يعانى مشكلة الخلق الفنى ؟

هل هو شرط من شروط حرفة النقد أن يكون صاحبها مبدعاً أولاً ؟

هل لا بد لهذا الذى يسمح لنفسه بأن يكون قيماً على إبداعات الآخرين ناقداً ومفسراً وحكماً . . . هل لا بد له قبل أن يكون ناقداً أن يكون قادراً على الذهاب بنفسه الى تلك المنابع التى تصنع الفن ، متمكناً من الكتابة الابداعية من شعر أو قصة أو مسرحية ، حتى وان لم يكن ذلك شرطاً من شروط النقد ؟

هل هذه الكتابة الإبداعية شيء يغنى تجربة الناقد ويجعله أكثر تمكناً من حرفته وأكثر قرباً من هذه الأعمال

الفنية والأدبية التى يتناولها بالنقد ؟ !

إننى لا أستطيع أن أعطى جواباً محدداً . . . ولكننى أقول أن نقاداً كباراً فى العالم امثال ت ، س ، اليوت وآخرون على مستوى الأدب العربى من أمثال « العقاد » و« طه حسين » و« محمود أمين العالم » و« عبد القادر القط » ، لم يكن من الممكن أن يكونوا نقاداً بهذا المستوى ، لو لم يكونوا فى الأصل شعراء ومبدعين .

لقد ذهبوا جميعاً فى زيارات ـ بعضها سريع وعاجل ـ الى تلك المنابع التى يأتى منها الفن ، وتسلخت أقدامهم وهم يصعدون الى قمة الجبل ، واحترقت أصابعهم وهم يغترفون من جمر الابداع ، وعندما جاءوا الى النقد بعد ذلك كانوا يعلمون جيداً عناء الرحلة ، ويدركون آلام الاغتراف من جمر الابداع ، ومشقة الصعود الى أعلى الجبل ، وأهوال السفر الى تلك المنابع التى يأتى منها الفن ، وفوزى البشتى ، ليس استثناء لاولئك جميعاً ، فهو قبل أن نلتقى به فى هذه المجموعة التى بين أيدينا ،

كاتباً قصصياً ، إنما هو ناقد من نقاد الأدب فى بلادنـا ، تأكدت مكانته بيننا كناقد تضع عليه الحـركة الأدبية فى ليبيا آمالهـا ، وتـرى فيه فارسـاً يركب جواده ، ويحمـل سلاحه ويرافق قافلة الأدباء حارساً وديدباناً .

ولقـد واكب « فـوزى البشتـى » بمقالاتــه النقـــدية ودراساته وبحوثه حركة الانتاج الأدبى فى بلادنا وتنـاول بالنقد والدراسـة أغلـب ما صدر من كتـب ابـداعية فى السنوات العشر الأخيرة ، وأصدر منذ أكثر من عام كتابه الأول « الكلمة الشرارة » محتوياً لبعض هذه الدراسـات والبحوث . واضعاً بـين أيدى القـراء منهجـه فى النقـد والأسلوب الذى ارتضاه لنفسه وهو يخوض هذا المجال ، وتأكدت من خلال ذلك كله مكانتـه كناقـد لادبـاء هذا الجيل .

ومن حين لآخر كان « فوزى البشتى » ، ينشر قصـة على خجل واستحياء.. كان ينشرها وكأنه يزور فى الخفاء

عشيقه سرية ، ويرفض أن يسميها قصة .

إنه مبالغة فى التنكر وخوفاً من ذلك الناقد فى نفسه كان يسميها « صورة قلمية » ولكنها برغم هذا الحذر وهذا التنكر تبقى قصصاً لها عبيرها الخاص ، وشخصية كاتبها المتميزة . أهم ما يميزها صدقها ، وأعظم ما فيها أن كاتبها ناقد يكتب القصة ، ومع ذلك فهو بعكس كثير من النقاد الذين يكتبون قصصاً ، حيث كان همهم الأول ليس الفن ، ليس الصدق ، بقدر ما هو النقد . أعنى التطبيق لهذه القواعد والمقاييس وجداول الضرب الأدبى التى يحفظها النقاد . . . . ويتفننون فى استعمالها ويقومون أحياناً باختراعها بمعزل عن الفنان نفسه ، فيستعملون فى كتابتهم القصصية ، المساطر والبراجل وجداول الضرب فتأتى قصة فى هندستها وبنائها وتكنيكها ، ولكنها قصة مختبرية ، قصة كأن الذى قام بكتابتها « عقل آلى » وليس فناناً ، باردة ، خالية من ذلك الوهج الذى لا تصنعه المقاييس والمساطر والهندسة

وجداول الضرب ، بقدر ما تصنعه الموهبة والاحساس والوجدان .

ولذلك فإن أجمل ما فى هذه القصص أن فوزى البشتى لا يكتبها بأسلوب قضاة الأدب . لقد تنحى الآن عن مقعد القاضي ونسي للحظات حرفة النقد . ورمى بالمسطرة والخرط ، وجلس ليسجل لحظة صدق ، ولذلك فهو هنا لا يحتفل احتفالاً مبالغاً فيه ، بالشكل الفنى للقصة القصيرة ، كما يفعل عادة النقاد الذين يكتبون القصص . قد لا تجد القصة فى القصة الا فى نهاية القصة كما فى « الضحك » قد تبدو القصة امتداداً للحظة لا نراها ولا ندرى عنها شيئاً ، فالطالب فى قصته « الغضب » الذى تنتهى القصة « وفى داخله ثورة جيل كامل تريد أن تنفجر » لا نرى شيئاً فيه يجعلنا نصل معه الى هذه النتيجة سوى سخطه وتبرمه وضيقه من الدرس ومناقشات الزملاء وجو الدراسة الخانق دون أن نعرف لذلك سبباً .

ولكن مع ذلك فأنت فى صحبة كاتـب يتحـدث عن سجيته وعفويته بصدق وحرقة ومرارة .

هى لحظات صدق وشحنات انفعال يريد أن يعبر عنها دونما مواربة أو افتعال فى هذا الشكل من أشكال التعبير ، وهو وان لم يلتزم التزاماً دقيقاً وشديداً بتلك القواعد ، فهو لا يستهتر بها أو يعاملها باستعلاء وغرور ، انه وان تجاوزها حيناً فهو يتعامل معها باحترام شديد ، والحدث يتطور وينمـو ويتصاعد ، واللحظة هى اللحظة يذهب معها عميقاً ولا يتركها أو يتوه عنها .

حدة انفعاله فقط تفسد عليه أحيانـاً طريقـة سرده ، وتجعله يقع حيناً فى السرد والتقريرية ، أو يستطرد حيناً آخر فى تصوير انفعال لا يخدم غرض القصة من بعيد أو قريب .

ولقد أحسن « فـوزى البشتـى » صنعـاً بأن أسماهـا « الاشرعـة » فهـى رحلـة نحـو تلك الجـزر الموحشـة الصخرية الكئيبـة التـى يحاصرهـا من كل جانـب موج

متوحش شرس .

انه لا يعدك بالفرحة ، ولا يأخذك فى نزهة سياحية الى المدائن والمنتزهات ، لا فرحة هناك سوى فرحة الاكتشاف والمعرفة واغناء مشاعرك وأحاسيسك بالتجربة والمغامرة .

قد تجد نقطة ضوء بعيد تطفو فوق الماء ، وقد يخامرك أحياناً الأمل فى النجاة ، وقد يصرخ الكاتب معك و« يهيب بالشمس أن تشرق وان تعطى لكل شيء معنى واضحاً » .

لكنه فى هذه الرحلة لا يعدك بشيء آخر ، ولن تجد إلاركام السفن التى تحطمت ، والصخور الناتئة الموحشة التى يحاصرها الموج ، وتلتقى بنماذج بشرية هزمتها الظروف وتحطمت مراكبها على الشاطىء ، وتستمع الى توجعها وانينها وهى فى عزلتها ووحدتها ، « هى مخلوقات كانت رجالاً » بتعبير « مكسيم جوركى » .

« بن دومة » فى « أشرعة الحزن » كائن من الكائنات كان فى يوم من الأيام شيئاً . لكن حياته الآن فقدت كل وهج وألق ، تحطم قاربه الشراعى على صخور وعرة شرسة ، وحاصرته المياه من كل مكان ، واختار صخرة يرتمى فوقها « كان يعرف انه لا يفعل شيئاً سوى انتظار هذه الاغفاءة الأبدية » .

و« ابو كلباك » فى الصمت لا يتكلم كثيراً ، كائن آخر كانت له فى يوم من الأيام طموحاته ورغباته وآماله لكنه الآن بقايا انسان ، ما فائدة انه كان « جزءاً من هذا العالم قبل أن تنساه البشرية » لكن « فوزى البشتى » لا ينساه ، انه يرى فيه وفى النماذج الأخرى المشابهة له ، رمزاً لكل الآمال المحبطة فى الحياة ، لكل الهزائم التى نلتقى بها فى صراعنا اليومى ، لكل الآمال التى لم تتحقق والأحلام التى أجهضت والأمنيات الحلوة التى لم تر طريقها الى النور ، انه تاريخ هذه الخيبات والهزائم ، تاريخ من لا تاريخ لهم .

وإذا رأيت « رجلاً مقطوع الرأس » يطوف فى تلك المتاهات الوحشية ، فلا تفزع ، لأن الكاتب كما قلت لا يعدك أبداً برحلة سعيدة مبهجة ، ومن واجبى ككاتب لهذه المقدمة ان أقول هذا التحذير ، فهو يأخذك فى أشرعة حزنه الى جزر تحس منذ اللحظة الأولى أن هذه الجزر قد شهدت منذ زمن مضى حريقاً هائلاً وانطفأ الحريق بعد أن أتى على كل شىء ولم يبق سوى الرماد والأنقاض السوداء . . . وضوء بعيد يطفو فوق موج البحر لعله حقاً سفينة الانقاذ !

وإذا كان « فوزى البشتى » وفياً لتلك النماذج التى كتب عنها بحب شديد ، فهو وفى أكثر لأناس كانت محنتهم هى محنته الشخصية « فصالح » زميله فى الدراسة الذى سقط ضحية القمع والارهاب فى العهد الملكى ، هو رمز لكل الشهداء ، ولكل المناضلين ، من مات منهم ومن لم يمت ، وعمى العربى هو رمز لجيل الآباء فى صبره وعناده وصموده وقوة احتماله ، وصورة انسانية لهذا

الأب فى فجيعته ومحنته .

وإذا كانت القصص هى هذه الفجيعة واللوعة والحرقة ، هى هذا الأسى والحزن والألم العميق ، هذا الحطام من السفن الغرقى ، وحطام آخر من النماذج البشرية فماذا بوسعنا أن نقول للكاتب ، هل نلومه لأنه حزين الى هذا الحد ؟ هل نطالبه بأن يقول لنا غير ما يحس أو شيئا مختلفاً عما يشعر به ؟ وماذا يبقى اذن من الفن عندما نقول ذلك ؟

إنى لا ألومه حتى على تلك (الذاتية) التى تبدت فى بعض القصص وجعلتها تقترب من ذلك اللون الذى كانوا يسمونه فى المرحلة الرومانسية « بالقصة الشخصية » .

إن أحداً لا يستطيع أن يلومه على ذلك ، فالفن لا يكون على الاطلاق فناً إذا كتبناه بتجرد وحياد وبعد عن

الهوى ، ربما بعكس البحث والدراسة والمقالة النقدية .

ولقد وعى « فوزى البشتى » هذه الحقيقة جيداً فنجح ناقداً وقصصياً .

أحمد ابراهيم الفقيه



كلمة لابد منها

سأعترف لكم مقدماً وأنا أضع بين أيديكم هذه المجموعة القصصية اننى عندما فكرت فى كتابتها ، لم يكن فى نيتى مطلقاً أن أكتب قصة ، أعنى انها مجرد لحظات انفعال ، مجموعة من الأحاسيس ، مواقف صدق عشتها وعانيتها وانفعلت بها ، بأحداثها وانعكاساتها وامتداد وهجها فى أعماقى وأعماق كل أبناء جيلى ، الذين عاشوا ردحاً من الزمن فى ظل نظام ملكى عميل ، باع كل شيء وهيمن على كل شيء ، وحاول جاهداً أن يغتال كل أحاسيس الانسان الشريفة .

ومن هنا فإن بعض قصص هذه المجموعة ترقى الى

مستوى الوثيقة التاريخية ، وتكاد تتحول الى عمل تسجيلى صرف .

فأحلى ساعات الليل ، و« الجنازة » فيهما تسجيل تاريخى ووجدانى لحدث عظيم صنعه جيلى ، عندما وقف فى وجه الجلادين والطغاة والعملاء ، الذين كانوا يحاولون عزل هذا الشعب عن انتمائه العربى وارتباطه بقضايا امته العربية .

وكان شهداء يناير من شباب جيلى فى مدينة الزاوية وفى مدينتى بنغازى والجميل ، شرارة عظيمة أعطت لهذا الشعب العربى المناضل ، هذه القفزة العظيمة التى أوصلته الى فجر الفاتح العظيم .

وفى بقية قصص المجموعة نلتقى بنماذج تعيش على هامش الحياة ، أو تعانى أزمة من الأزمات أو تتطلع الى مستقبل أفضل عبر لحظات قلقها وفجيعتها وغضبها المكبوت ، الذى يتولد باستمرار كلما هيمنت العلاقات

الظالمة واستفحلت ، لتقهر الانسان وتستعبده وتخنق فى أعماقه ارادة الحياة الحرة الكريمة . ومن أجل ذلك فقد لا تكون « الأشرعة » مجموعة قصصية ، بالمعنى الفنى للقصة ، بقدر ما هى محاولة لنفض غبار الأمس البشع ـ والنظرة الى الماضي بغضب . لكى تعرف الأجيال التى ولدت مع اطلالة الفاتح العظيم ، ان هذا الشعب قد استطاع أن يتحدى جلاديه وان يقهر الطغاة والعملاء ، ويدوس على كل تراكمات الجهل والخيانة والغبن الاجتماعى ، الذى اكتسحته ثورة الجماهير ، التى كانت وستكون باستمرار أمل الجماهير المغبونة فى كل مكان على وجه الأرض .

فوزى البشتى



احـــلى ساعات الليل



إلى أرواح الطلبة ، شهداء 13 يناير سنة 1964

عندما سمع « عمى العربى » صرخات نسائية مفجوعة ، كان يشق الأرض بمحراثه الجديد ، كان العرق يتصبب غزيراً من جميع أنحاء جسمه ، كان متعباً الى أبعد الحدود ، وكان وجهه قد بدأ يكتسى بحمرة قانية من أثر الشمس التى بدأت تلهب ظهره ، وتخترق عظامه بقسوة . . . والتقط انفاسه بصعوبة ليصغى الى الصراخ من جديد ، كانت الأصوات المفجوعة تنطلق من كوخه بالضبط ! وشاهد على البعد أخته تقبل عليه من بعيد وهى تصرخ .

ـ بصوت قلق مبحوح صرخ فيها :

ـ ماذا حدث ؟ هل اشتد عليه الحال ؟

وأجابته وهى تواصل الصراخ .

ـ لقد فقدت أبى ، أنت أيضاً فقدته ، لم يعد لنا أحد ، لقد فقدنا الصدر الحنون ، كنا نعيش به هو وحده . . . وكان هو يعيش بنا . . فهل نستطيع الحياة بعد الآن ؟!

عندها ترك المحراث .

إذن فقد مات والده . . . ها هى مشكلة جديدة قد القيت على كاهله ، فقد أصبح الآن هو المسئول عن هذه الأسرة الكبيرة التى خلفها والده . . . ومع ذلك لم تصدر عنه أية حركة ظاهرة تنم عن حزنه ، لم يبك ، تحجرت مقلتاه فقط ، حتى أصبحت كتربة لم يزرها المطر منذ سنوات ، وتوجه الى الكوخ بخطى متثاقلة ، وعندما وصل اليه وجد نفسه يصرخ فى النساء النادبات :

ـ لقد مات . . . وانتهى الأمر . . . ما جدوى البكاء عليه الآن ؟ لماذا تسببن له مشاكل فى آخرته ؟ أما كفاه ما سببتن له من مشاكل فى دنياه ؟!

وبمنتهى الهدوء ، أنهى « عمى العربى » اجراءات الدفن وعندما أتى المساء ، ذبح خروفاً واستدعى شيوخ الزاوية المجاورة ، لتلاوة القرآن على روح والده ، وفى الصباح استيقظ مبكراً كعادته وعاد الى محراثه الذى تركه ، ليواصل شق التربة من جديد .

***

عندها ، شعر ـ لأول مرة ـ أنه أصبح متقدماً فى السن قبل وفاة الشيخ لم يكن يحسب سنوات عمره . . كان الشيخ ما يزال يعامل ابنه كطفل ، وبالرغم من تلك الشعيرات البيضاء ، التى بدأت تغزو رأسه ، كان ما يزال يحس انه ذلك الطفل الصغير الشرس ، الذى لا يستشعر النوم الا فى (حجر) والده ، والذى يفخر دائماً بأنه يستطيع أن يصرع خمسة من شباب القرية ، دون أن

يستطيع واحد منهم أن يمسه بسوء .

وعندما مات والده كان قد اقترب من الأربعين ولـم يكن قد تزوج بعد ، كان يعطى كل اهتمامه للأرض أثناء ساعات النهار ، أما الليل فقـد كان يقضيه متنقـلاً بـين سهرات القرية المختلفة وعندما يأتى الصباح ، يسـارع الى بقرتـه ويبـدأ فى استخـــراج الماء لـــيروى جداولـــه العطشى . ولم يكن يفكر فى شيء آخر عدا ذلك .

لكنه الآن أصبح يواجه وضعـاً آخـر ، كان عليه أن يواجه مسئولياته الجديدة كما ينبغى .

***

منذ وفاة الشيخ ، أعطى اهتماماً أكبر للأرض وأعطى جزءاً من وقته للأسرة الكبـيرة التـى تركهـا ذلك الشيخ المزواج ، أدخـــل اخوتـــه المدارس ، وزوج اختيه الكبيرتين ، وأعطـاهما نصيبهما من أمـلاك الأسرة ، ثم وبغير أن يلتقط أنفاسه ـ ترحم على روح والده . وبصق فى راحتيه ، وشرع يضرب الأرض « بمسحتــه » حتـــى

يملأها خضرة . . . غرسها ، حوطها «بطابية» ضخمة ، بنى بيتاً صغيراً وتزوج ماذا يهم بعد ذلك ، انه اختط طريقه فى الأربعين بدل أن يختطها فى العشرين .

المسار واحد فى الحالتين ، بل المسار الداخلى ايضاً ، ذلك الالتحام بين روحه وبين هذه التربة ، وهذا الشجر ، الى الحين الذى لا يستطيع معه أن يميز بين جهاده وجهاد الشجرة الفتية التى تكافح لكى ترسخ جذورها فى الأرض . ولا أن يميز بين الم‍ه وألم الشجرة متى أصابها الداء ، والى الحد الذى يسمع معه فى نومه صوت أشجاره وقد اشتد عودها ، ويشعر بالفرحة لأنها قد شربت حاجتها من الماء وارتوت .

وقد قدر لتأخره فى اختطاط سبيله ، والاستقلال بكده ان يكون سبباً لأن يختلف منهج حياته عن المألوف من ناحية واحدة .

***

كان « عمى العربى » قد تجاوز الأربعين ، عندما أنجبت زوجته طفلهما الأول .

كان ولداً ، لم ينجبا غيره ، وقد أحاط الوالدان اللذان كانا فى منتصف العمر هذا الابن بعواطف لم يألفاها من قبل ، كانا يختزنانها فى الأعماق غامضة غير مفهومة لكنها غرست فى قلب الأم بذرة حب لا حدود له ، وأنبتت فى عقل « عمى العربى » بعض الأفكار الجديدة . وهكذا تلقى صالح - الابن الوحيد - من أمه ملاطفات غير معهودة بالنسبة الى أقرانه ونال من والده الاذن بأن يذهب الى المدرسة الثانوية فى المدينة التى تبعد عن القرية مسيرة ساعة، ولم تتوقف الأفكار الجديدة فى عقل« عمى العربى » لحظة واحدة ، فقد قرر أن يوفر لابنه كل شيء ، حتى يكمل تعليمه الجامعى . . . بالرغم من ضيق ذات اليد ، . . . وهو يعرف ان ذلك القرار سوف يرهقه امداً طويلاً . . . فمن أين له بالمال الكافى لكل هذه السنوات الطويلة . . . لكنه كان قد قرر

وانتهى الأمر . . .

ـ فلينته من المدرسة الثانوية ، وسنرى ، هذا ما كان يقوله فى قرارة نفسه ، وقد توقفت يده عن العمل فى الهواء لحظة واحدة ، ممسكة بمنجل التشذيب ، وارتعشت فى عينيه ابتسامة ، ثم كان يعود الى عمله فى تقليم الشجر .

أصبح عالم « عمى العربى » مشتتاً بين تكريس جهده للأرض ، وبين أحلامه عن « صالح » ، وما كان عن الاثنين يتزحزح .

كان ، كما لو كان يعيش حياتين لم يكن يجمع بينهما فى فكره البدائى ، شبه مشترك ، وان لم يكن ثمة سبب لأن تدب الفرقة بينهما على أى حال ، كل ما هنالك ان الأحلام فتحت نافذة جديدة تدفق منها ضوء جديد ، غمر قلب « عمى العربى » وأضاء كيانه وزرع فى أعماقه آلاف الأحلام السعيدة .

* * *

هكذا مضت السنون ، بسطت أشجار الزيتون أغصانها وتشابكت فروعها ، وبلغ (صالح) الثامنة عشر من عمره ، صار فتى أسمر رزيناً ، قليل الكلام ، يشبه أباه كل الشبه ، وكلما شب « صالح » وأفلح ، انتشر النور فى قلب والده ، كما لو كان فلاح الابن دليلاً على فلاح الأب فى مزرعته الصغيرة .

ومع ذلك ، ففى الآونة الأخيرة ، بدأت تهب ريح جديدة اقتلعت من الناس البابهم . . . نداء شامل مزلزل ، كأنه من أعماق الزمن ، يبشر بأن الساعة قد حانت ، فلم يعد اطار الحياة اليومية يسع أهل القرية الطيبين ، فى المقاهى ، وفى البيوت ، وفى السوق ، وفى مقارّ العمل ، وفى المدارس ، علت موجة الظلم وتحدى القوى والعواطف الوطنية لم يعد فى إمكان الناس أن يتحملوا أكثر مما تحملوا .

كل شىء غدا زائفاً ، ومفروضاً بقوة القهر والطغيان يبحث الانسان طويلاً ، عن أى رمز من رموز

سيادتـه على أرضـــه ، فلا يجـد شيئـاً ، فقـط رايات الامـريكان والانجليز . ترفـرف فى كل مكان وأقنعــة زائفة ، لحكام لا يختلفون عن الدمى فى شيء . . .

استفحل الطغيان حتى لم يعد فى الإمكان السكوت وفى نفس الوقت ولد اصرار على اكتسـاح هذا الـطغيان وتحديه ، امتشق الشبان سلاح الحماس ومضوا يبحثـون عن فرص التضــحية والفداء . . . كانــوا يروحــون ويجيئون ، ينتحون جانباً ويتهامسون ثم فجأة يقفـزون الى دراجاتهم ، يركبونها ، ويمضـون الى المدينـة ، وكان (صالح) من بينهم . .

***

انتابت « عمـي العربـى » مشاعـر الشـك منـذ أول وهلة ، الا انه لاذ بالصمت ، ومثل الحيوان البرى تشمم فى الهواء مقدمات العاصفة الهوجاء ، وبكل تحفـظ راح يراقب « صالح » ويتتبعه ، كان خائفـاً أشـد الخـوف ،

ولكن ذات يوم ، عندما حاولت زوجته أن تحدثه عن مخاوفها على ابنها الذى لا يرتدع نهرها قائلاً :

ـ دعيه وشأنه ، انه يعرف ماذا يفعل ، هل تريدين من رجل مثله أن ينكص على أعقابه ، ويندس مختبئاً وراء ثيابك ؟!

على انه بدأ يروض من تحفظه بعد ذلك رويداً رويداً انتابه احساس بأن كل هذه الانتفاضات من حوله كما لو كانت تنبثق من جذور وجوده ذاته ، من الأعماق ، من أقصى الأعماق ، من حيث يعتصر رحيق شعوره بقوميته ووطنيته .

وفى يوم من أيام الشتاء ، السابحة فى دفء الشمس كان « عمى العربى » جالساً عند عتبة داره ، يصلح محراثه استعداداً لحرث الأرض من جديد ، عندما أقبل عليه صبيان لاهثان ، جاءا ووقفا أمامه ، وهما يديران بارتباك فى أيديهما كتبهما المدرسية .

فزع « عمى العربى » لمرآهما ، لكنه لم يفصح عما انتابه ، تطلع اليهما فحسب ، وانتظر ان يتكلما . . . مضت لحظات مجللة بالصمت والرهبة ، وفى النهاية قال أحدهما بلهجة متقطعة ، ربما لأنه نسى ما كان قد سبق أن أعده من كلام .

قال بعبارة مفككة لاهثة :

ـ نزل الطلبة فى مظاهرة . . . أطلق البوليس الرصاص على « صالح » الذى كان يحمل علم « فلسطين » ارتمى فى المقدمة ، انكفأ على وجهه وسقط على الارض جرح حشد كبير من الناس . . . لكنهم وضعوا أيديهم على جراحهم وهربوا . . لكن « صالح » ظل فى مكانه . كرر الصبى قوله بصوت نائح .

فهم « عمى العربى » وهب لتوه واقفاً ، ارتفع بداخله عمود من الغضب العارم ، وعلا الصراخ فى أعماقه ، أما الأم التى كانت فى البيت وسمعت ، فقد

ندت عنها صرخة وهمت بالاندفاع خارج البيت ، لكن « عمى العربى » مد يده واحتضنها ، وبينما هو يحتضنها بحنان لم يسبق أن أحس بمثله ، اقتادها وأعانها على الجلوس ، بدا كل ما أعقب ذلك فى هذا اليوم وما تلاه من أيام كما لو كان يجرى فى منطقة منفصلة من حياته ، فى منطقة لا شىء فيها ينتهى ، ولا شىء يبدأ ، لأن اللحظة - كل اللحظة - مشحونة بارتجافات تغمر وتستحوذ وتوجه كل شىء .

وسط الانسحاق الذى عاناه قلبه أحس كما لو أن كل العالم يبكى معه بصمت ، حتى أشجار الزيتون الخضراء، التى تعود أن يراها مليئة ببهجة غامضة ، باسمة دائماً فى وجهه ، وهو الذى لم ينس قط فى حياته أن يعطيها كل عنايته وحبه . . . حتى أشجار الزيتون تحولت الى مجرد كتلة أوراق يابسة سوداء كأنها تلبس ملابس الحداد .

لكن بعد أن ووری جثمان « صالح » القبر ، أقبل

الليل ، وأخذ المعزون بضغطة على اليد ، بكلمة مواساة طيبة ، ينصرفون . . . وبعد منتصف الليل بقى الوالدان العجوزان وحدهما وليس ثمـة من يقف الى جوارهما فى حزنهما الكبير .

أحس « عمى العربى » عند ذلك أنه قد هبط المنطقة المألوفة من حياة كل يوم ، استـدار ونظـر الى الأم التـى جلست صامتة مكسورة الجناح وقد بدا لها باطـلاً كـل عناء وجزع ، أحس نحوهـا فى قلبـه بذلك الحنـان من جديد ، وسرى فى عروقــه دبيب ميل الى ملاطفــة مكبوتة .

ما لبثت الأم وقـد هدهـا التعـب أن رقـدت تحـاول النوم ، أما « عمى العربى » الذى لم تعد الـدنيا تتسـع لأحزانه ، فقد فتح الباب وخرج الى السانية .

جرفـه مشهـد أشجارهـا النابضـة بالحياة ، وشذاهـا المألوف فى ضوء النجوم ، جرفه ذلك الى فلكها كما كان

يحدث له دائماً .

كانت هذه أحلى ساعات الليل ، تلك التى تبشر بانبلاج الفجر ، مضت العصافير تطرز صوتها خيوطاً على خمار الصمت ، وخفق جناحا دجاجة فى الحظيرة المجاورة ، ومن بعيد سمع خوار ثور ثم أخذ الأفق يكتسى بلون بلورى ، ولاحظ « عمى العربى » أن الجو كان جافاً وساكناً .

ـ حان وقت رى الجداول

هذا ما فكر فيه الفلاح الذى استيقظ بداخله ثم عمد من تلقائه الى ربط الفكر بالعمل فمضى الى كوخه حيث صف معداته ، وأخذ فأسه وشرع فى العمل .

ملأ صوت اندفاع الماء من (الدلو) صمت تلك الساعة فى الفجر بصوت غريب كان يشبه حشرجة رتيبة من مخلوق يحتضر .

فى تلك اللحظة ، صاح مؤذن الفجر ـ حى على

الفلاح وامتـلأ « الدلـو » الى آخـره بالماء منسكبـاً وسـط
« الجابية » الصغيرة ، محدثـاً جلجلـة هائلـة ، واختلـط
الصوتان ، فكونا نغماً رائعاً ، كأنه كانّ يهيب بالشمس -
وهى تشرق ـ أن تعطى لكل شيء معنى واضحاً .



- 2 -

الـفجر في عيون الشهداء

صورك تتناثـر بـين أيدى المشيعـين ، صورتـك كنـا نعرفها جيداً ، لكن الصورة التى تتناقلها الأيدى الآن ، كانت تمثل شيئاً معيناً بالنسبة لنا ، نحن رفاق دراستـك فلقـد ذهبنـا معـاً الى مصـور القـرية ، الـوحيد ، بعـد معارضـة طويلـة منـك . إذ كنت تصر على أن تربـى « شاربـاً » يليق بك ، وحتـى يظهـر فى الصـورة التـى سنقدمهـا ضمـن الأوراق اللازمـة لدخـول امتحانـات الشهادة الثانوية ، كنت تقول لنا ضاحكاً :

ـ لا يليق بالأطفال أن يدخلوا الجامعة ، هل تريدون أن يسخر منى عميد كلية الحقوق ؟! ها . . . انتظـروا

حتى يكبر « الشنب » وبعدها يحين وقت التصوير .

وانتظرناك طويلاً . . . انتظرنا حتى مالت شعرات شاربك على ذقنك ، وحتى أصبحت تبدو مثل « أبو زيد الهلالى سلامة » كما يتصوره الخيال الشعبى . وذهبنا معاً . . . صفاً طويلاً كنا نقف أمام محل التصوير ، وعندما جاء دورك ، أصلحت من وضع طاقيتك ولففت (جردك) جيداً . وجلست أمام آلة التصوير كما يجلس أى قروى طيب وضحكنا من جلستك كثيراً ، لكنك كنت مصراً على أن الجلسة يجب أن تكون هكذا لكى تكون الصورة محترمة ، وتليق بطالب جامعى وعندما جهزت الصورة وزعت علينا مجموعة منها للذكرى . . . لكن . ها هى الصورة نفسها تشاركنا موكبك الحزين . . . وها هو ذلك الشرطى العجوز يلعن « سنسفيل » جدودنا ، ويصفنا بالشياطين لأننا استطعنا أن نستخرج لصورتك كل هذه النسخ وبهذه السرعة . لا بد انه يقول فى نفسه ـ صور الملك نفسه لم تكن بهذه

الكثرة فى أية مناسبة من المناسبات . .

يقول ذلك ، لأنه لم يكن يعرف الفـرق بـين الملك و« الشهيد » بين من باع الوطن ومن افتداه بنفسه .

مسـكين لم يكن يدرى ، ولا كان فى مقـدوره أن يفهم !!

* * *

صورك ، تتناثر بين أيدى المشيعين ، أطروها بسواد هش . . . سرعـان ما تفتـت ، وعبـر كل زقـاق يمـر به الموكب كان ثمـة نسـاء يعـولن ، مقابـل نشيج بعض الرجال . لا شك أن حبيبتك بينهن ، لم تستطع الخروج لوداعـك بدون شك !! فلا أحـد يعلـم قصـة حبـكما سوانا . . . فكثيراً ما شاهدناها تبادلك النظرات عبر تلك النافـذة الضيقـة من ذلك البيت المتهـدم الـذى يلتصـق بالمسجد وكأنـه يحتمـى به ، وكثـيراً ما كنـت تقـرأ لنـا قصائـدك لهـا ، لكنهـا لم تكن فى الموكب . . . صوت

نشيجها وحده كان يرافق الجنازة كلحن جنائزى مهيب .

النعش مهيب يوحى بأهميتك . . . أولست شهيداً . . . ؟! التابوت مزوق بتعاويذ ورموز كنا نتعاطى محبتها ، كنت أكثرنا محبة لها . . . كنت شغوفاً بحضور كل تجمع جماهيرى ، حتى « الحضارى » كنت تصر على حضورها ما ان تسمع دقات الدفوف حتى تتركنا وتجرى وسرعان ما نفاجأ بك ، وقد دخلت الحلقة ، وأمسكت بالدف ، وبدأت تردد معهم تلك الايقاعات الصوفية الحالمة ، وكنا نضحك من ذلك كثيراً . . . مثقف مثلك يؤمن بهذه التشنجات الساذجة ؟!

وكان « الصديق » يقول لنا بسخرية . . .

ـ إن صالح سيكون أول (عيساوى) يدخل الجامعة . وتمتلىء الجلسة بالضحكات ، لكنك لا تبتسم اطلاقاً تدير وجهك ناحيتنا وبمنتهى الهدوء تقول :

ـ لا تبتعدوا عن النـاس . . . اذا أردتـم أن تحققـوا الحلم . . . اقتربوا من هؤلاء الناس . . . فبهم وحدهم تتحقق أحلامكم .

ـ ويغرق الجميع فى الصمت ، ثم سرعان ما يجيبـك « الصديق »

ـ حلـم . . . هل نحقـق أحلامنـا بمجموعـة من « العيساوية » المجانين ؟!

وتصمت أنت ، ونصمت جميعاً .

فقد كنا نعرف أنك تعنى الاقتراب من الجماهير . . . وانك كنت أكثرنا امتلاء بذلك الحلـم الـذى نسعـى له جميعاً ، وأكثرنا بحثاً عن وسائل تحقيقه .

* * *

النعش كان مهيبـاً ، وصورتـك هى نفس صورتـك التى نحبها جميعاً .

أواه . . . لم يكن أحـد يعلـم مدى التشتـت المرير

الذى أعانيه !!! كنت لا أكاد أحول حدقتى المتعبتين عن النعش وفجأة يا صديقى ارتفع رأسك فى مقدمة النعش ، رأيتك تمسح بنظراتك المتفحصة كل من حولك . . . ربما لتتأكد ـ للمرة الأخيرة ـ أنهم يشيعونك كما يجب وكما يليق بشهيد .

جاء الأمر من قائد القوة المتحركة .
ـ ادفنوا الموتى بصمت .

وتحركت السيارات الرمادية ، لتراقب الأمر ، واجتمع الشيوخ فى المسجد ـ تناقشوا طويلاً ثم توصلوا الى نتيجة .

قال شيخ معمم : لا داعى لمزيد من المشاكل . . . نحن لسنا أقوى من الحكومة ، أوامر الحكومة يجب أن تنفذ ، والأموات تتساوى حجومهم عند الله أدفنوه بصمت ، وليغفر الله له ولنا جميعاً . ووجم الجميع . . . لم يوافقوا . . لكنهم أيضاً لم يعترضوا . ومن وسط

الجمع ، انبثق والدك فجأة . . . صاح فيهم جميعاً بصوته المجلجل .

ـ لستم انتم من تقررون دفن ولدى . . . إذا كنتم خائفين فلتذهبوا جميعاً الى الجحيم . . . انه وحيدى . . . ليس لدى أحد سواه . . . كنت انتظر أن يجلب لى عروساً تملأ البيت أطفالاً . . . لكنه قتل . . . قتلته الحكومة التى تخافونها ، لأنه قال كلمة حق ، لأنه تحدى الظلم والقهر . . . ، أولستم مشائخ دين ؟! أولا تؤمنون بكتاب الله ؟!

إذا كان ولدى قد مات وهو يقول كلمة الحق . . . اذا كان موته من أجل الوطن . . فليدفن كما يدفن الشهداء لا كما يدفن المجرمون .

وصمت الجميع .

وتحرك الموكب تجلله الأحزان . . .يتقدمهوالدك وعلى وجهه مسحة غريبة من الكبرياء والحزن ، هل كنت

تعرف معنى أن يختلط الكبرياء بالحزن ؟

لا بد أنك كنت تعرف فأنت شاعر ؟

هل أعجبك الموكب ؟ هل ارتاحت نفسك ؟ ، هل حركت فيهم بموتك شيئاً ؟

لا بد أن كل ذلك قد حدث ، فأنا أرى مسحة من الغضب والثورة تكتسح وجوه الجميع .

لا بد أنك سعيد بذلك ، لقد كنت اراقبك ، وأنت تطل على الجميع ، وعندما دخلك الاطمئنان ، استراح رأسك فى مستقره ، فى حين تمثلتك فى أعماقى حكايا كثيرة وملابسات يؤلف بينها مذاق الحنظل !

بحذر كنت أتطلع اليك ، أدرت عينى حولى ، خشية أن يلحظ المشيعون آخر تحرك لك ، ساعتها يخيل لهم أنك قد بعثت حياً ، تتجسم بعدها اسطورتك ، يلهث خلفها كل الذين بللت حلوقهم بمفرداتك البسيطة التى كانت تخترق كل قلب ، وتنفذ الى أعماق الجميع لتضع أمامهم

حلماً واحداً لا يتغير .

الثورة . . . تدمير كل صور العفونة والقهر والطغيان لا نريد لك أن تصبح اسطورة . . . لأننا نخشى أن تصبح مجرد « مرابط » تبنى له قبة ، ويزوره الناس ، لا أريد لك هذا المصير ! !

عندها سيضحك (الصديق) طويلاً ويقول :

ـ أما قلت لكم . . . ها هو « العيساوى » يغير وجهة نظره ، فيصبح « شيخ طريقة » بدل أن يكون ثائراً .

* * *

ضحكت فى سرى رغم تشتتى المرير ، لم أعد أحث خطاى لأحتفظ بموقفى فى المقدمة . . . لكونى صديقك الأثير تثاقل خطاى ، ربما كنت تتساءل للمرة الأخيرة .

ـ ما الذى لا أعرفه عنك ؟

جذورك البعيدة هى جذورى ، قرويان ، هكذا كنا اصطدنا أزمنة النضال زمناً ، زمناً ، كتب الثورة فى

المدرسة اجتماعات الطلبة فى التفافات غابات النخيل ، وعلى حواف « مرسى ديله » الملطخة بزيوت سفن « التنارة » الموسمية ـ مظاهراتنا فى التهاب عنفوانها تخترق صفافة الشوارع المسترخية ، والمبتلاة بمجاميع المخبرين والبوليس الملكى .

هذه جذورنا ، لا يمكن نكرانها ، نمتص نسغ الأرض الواحدة ، تعباً وكدحاً وأحلاماً ، أواه يا زمن الحلم لكم كنا نعشقك . اختفاءاتنا كانت تطول فى البساتين البعيدة ، وكنا نتشمم روائح الخبز الطازج تحملها رياح الضحى من أفواه أفران القرية الى ممرات الفيء تحت النخيل .

سنوات صبانا ، كانت مرهونة بذلك العشق المتوهج للوطن ولا سواه . . . لا بأس علينا . . . ربما نستطيع بعد فقدك ، ان نعيد بناء خرائبنا ، فنحن ندرك جيداً أن طريقنا ملغومة ـ وعلينا أن نجاهد كل يوم لكى نصل .

كان زمــن الحلــم هو براءة العصر ، كان صليب طهرنا ، لكننا تجاوزناه لنصنع من أوجهنا المجلودة شواهد لعصر مات . اننى أصدع رأسك للمرة الأخيرة ، وأنت لا تزال على وجـه الأرض ، ألــم شتــات نفسى بعــد رحيلك ، ربما استطعنا أن نكشف الطريق مرة أخرى ، اذا اعتبرنا فقدك مرحلة لا بد منها للانتقال الى فهم جديد للواقع ولطبيعة دورنا .

إن الكثير من الرجال لم يسقطـوا . . . بل واصلـوا مسيرة الثورة وفى أعماقهم صورة تشبه صورتك ، مجـرد فتى قروى عنيد ظل يحلم بالثورة حتى سقط وفى أعماقه يتوقد ذلك الحلم الذى سيعيش طويلاً . . ما دام هناك من يضحى من أجله .

أخذت الجموع تقرأ سورة « يســ » بصـوت مهيب متقطع بينما أخذ أحـد أفـراد البـوليس ينتحـب ببـطء ، وانتظم المعزون فى صف طويل يواسون والدك ، لم ينتبه الينا أحد . كان الـذى فقـدك هو والـدك وحـده . . .

والدك نفسه لا يدرى نوع العروس التى كنت تحلم بها ، ونوع العرس الـذى كنـت تنـوى أن تقيمـه ، لعلـه لم يشاركك همومك الوطنية ، لكنه شيخ عنيد مثلك ، فيه الكثير من كبريائك وعنادك .

تنحى حفار القبور ، امتدت أيدى كثيرة ، انتشلـت الجثـة من النعش ، انهمـر وهـج الشـمس على وجهـى سقطت الخيبة على جسدى ، ثم هبطـت الى ساقـى ألماً ممضاً ، لم يعد زمنـى جيداً . . . لاح لى أن الأمـور لن تسوى بينى وبين تطلعاتى المتصدعة اقتعدت شاهد قبـر مندثر ، مرت أرجل المشيعين أمام وجهى ، غير آبهة بمـا تثيره من تراب شحن انفاسى بالعوائق ، اختنقـت . . . لم أجرؤ على السعال ، لم أجرؤ على تصور « الصديق » مرتداً كان خائفـاً يا صالـح ، انـت تعرفـه جيداً ، كان يرتعش ولم يشترك فى المظاهرة ، كان رأيك فيه صائباً ، لقد تركنا فى المقدمة . . . ثم انسحب رويداً رويداً .

ها هو الآن يقف على قبرك يبكى . . اما تراه . . لعنه

يكفر عن ذنبه . . كنت عاجزاً عن فهم الجميع ، وحدك كنت تعرف كل شيء ، وقلت لى كل شيء .

كنت كثيراً ما تردد !

ـ انتبه ، لا تثق به . . . لا تعطه أسرارنا .

وكنت أبتسم فى وجهك قائلاً :

ـ لا تكن قاسياً يا صالح . . . لا بد أن نكسب الجميع لكنه تركنا وهرب ، جبن فى اللحظة الأخيرة . . . وكنت صادقاً .

أهيل التراب وانتهى الأمر !

سمعت مسعود يكرر قولته المأثورة :

ـ كلا يا أخى لن نتوقف ، ان ذلك يعنى التخلى عن الثورة التى يصنعها الرجال الذين لا يعرفون المستحيل .

إنسدل النهار فضفاضاً ، أوسع مما احتمل ، أكثر نوراً مما تطيق عيناى ، فى حين انتشرت رائحة المقبرة التى نعرفها جيداً فى الأفق ، وكانت الجموع تغادرها فى صمت رهيب . بينما كان المخبرون يؤدون واجبهم .

لكنهم لم يستطيعوا احتمال أشعة الشمس الملتهبة فغادروا المقبرة فى انكسار ، تمنيت لو شاهدته فى عيونهم لتنعم بسعادة ، أعرف جيداً وقعها على نفسك . . .

كان الصمت رهيباً ، ولا أدرى لماذا أحسست لأول مرة أن الصمت وحده ، القادر على قول الكثير ، وتمثلتك أمامى مرة أخرى جسداً شامخاً ، تطل من عينيه كل الأحلام الخضراء . . . ويولد عند أقدامه الفجر فالفجر يولد دائماً . . . عند الاغماضة الأخيرة للشهيد .

الاشــرعة



ينط كالكرة ، يأكل الطريق بقدميه الواهنتين ، مثل ضفدعة عجوز كان وجهه ، وطاقيته التى كانت حمراء فى يوم من الأيام أصبحت بلا لون . ونظرته باهتة لا ملامح لها . . . والشارع يغرق فى الصخب ، ولا أحد يأبه له . . وهو أيضاً لا يأبه لأحد ، يعامل الناس ، كما لو كانت بينه وبينهم عداوة مستفحلة ، والشمس فوق خط البحر الأفقى برتقالية تزداد احمراراً ، وفى الخلف والمقدمة سيارات فارهة ، ونساء جميلات ، وواجهات عرض مليئة بأحدث صرخات الأزياء البارسية ومجموعة من الشباب يجتمعون أمام أحد المقاهى المنتشرة على طول الشارع ، يجلسون الى المائدة ، يتناولون طعامهم اليومى

من السأم . . . و« أم كلثوم » التى لا مفر منها تغنى وتتأوه مثل أى عجوز وصلت سن اليأس . . . ثم ، « بن دومة » والزمن الهارب .

واحد ، اثنين ، ثلاثة ، أربعة ، والخف العريض الواسع يرسم علامة ويخترق أحجار الرصيف الباهتة والرحلة لا تنتهى . . . الكل يريد لها أن تستمر ، كلهم يشيعونه بنظرات جافة لا يدرى لها سبباً ، وفى أحيان كثيرة كانوا يضحكون . وكان يعرف أنه تسليتهم الوحيدة لا أحد يريد أن يعامله كانسان ، لأنهم يريدون لهذه اللعبة المسلية أن تستمر . . . ولكن الطريق طويل والمعدة خاوية . . . وقدماه أصبحتا كعصى « الرتم » اليابسة وأحس بحفنات التراب والحصى الصغيرة تدخل حذاءه وتقرص أصابع قدميه . . . و« بن دومة » يتلفع بمعطفه المثقوب وطاقيته التى فقدت لونها تنحسر عن جبهته ، وتنبت قطرات عرق تسيل فوق خديه نحو شعرات الذقن ثم تتمهل فتنحدر بسرعة خاطفة على وجه

يملؤه الغبار .

إيقاع للقدم ثم صمت .
رفرفات للعين المحمرة أبداً ثم صمت .
قامة مقوسة مضمخة بالقهر والنسيان . . . ثم لا شيء البتة .
عندما وصل إلى المقهى تعالت الضحكات والنداءات . . .
ـ هيا يا « بن دومة »
ـ تعالى يا « بن دومة »
ـ اشرب حاجة .

لن يجلس « بن دومة » مع أى أحد . . . سيكون له الحق فى الاختيار .

ـ تضحكون ؟! ضحكاتكم كاذبة ، ملامحكم كاذبة تغرقون فى الزيف والتفاهة ثم تضحكون ، لأنكم تعتقدون أن أحداً لا يعرف ما تعرفون ، هل تعرفون

مستقبلكم ؟! ستعيشون على نبش « كناسة » الامريكان . . . سوف لن تجدوا ما تلبسونه ، الا اذا استغنى أحد جنود القاعدة الامريكية عن ملابسه القديمة . . .

صاح أحد الجالسين . . .

ـ هل هذا تحريض يا (بن دومة) ؟

قال آخر . . . .

ـ أصبحت تتحدث فى السياسة يا بن دومة ، سوف تجر على نفسك المتاعب . . .

قهقه ثالث :

ـ سيعتبرونك معادياً للملك . . .

والضحكات مستمرة ، جميعاً كانوا يضحكون ضحكات خرساء ، فيما كانت القهقهات تملأ المقاهى المجاورة تملأ المتاجر ، تملأ الطرقات ، تملأ الشرفات العالية تنتشر فى كل مكان .

تأمله النادل « ضاحكاً » :

- ماذا ستشرب ؟

- قهوة سوداء ، أسود من شعر رأس أمك !

تمتم النادل بكلمات غير مفهومة ، توقفت امرأة وطفلها ضاحكين ، هزته من كتفه ، قرصت أذنه ثم وشوشت له . . .

- لا تقل مثل هذا الكلام .

قال الطفل بمرح واضعاً سبابته على صدغه

- هذا « بن دومة » المهبول ، يا أمى ، لا بد أنه سكران ؟

أمسكته من أذنه بقوة ، بدأ يبكى . . . قالت له أمه .

- سر أمامى أيها الكلب ، لن تأتى معى مرة ثانية .

تمطى « بن دومة » قائلاً

- لست مهبولاً أيها القرد ، اسأل أمك عنى فهى تعرفنى جيداً ؟!

قال جمعه :

أصبحت الكتابة اليوم كمن يبحث عن وصية ، مات

كثيرون ، بدأت أحس أن أمس كان فى خيال غيرى . واننى مجرد كيس مملوء بالهواء ، لا أدرى ان كانوا سيعبئونه بالقمامة أو بالذهب ؟!

قال بن دومة يخترق الصمت :

ـ لأنك تكتب دون أن تفكر ، الجريدة التى تكتب فيها . . . لو فكرت فى مصدر دخلها لشنقت نفسك انها ملك لرئيس التحرير ، ورئيس التحرير ملك لأحد أعضاء مجلس النواب ، وهذا العضو ملك لرئيس الوزراء ورئيس الوزراء ، ملك للسفير الأمريكى ، والسفير الأمريكى ضابط فى قاعدة ويلسن ، ويحمل جنسية أخرى اضافة الى جنسيته الامريكية ، لا تسألنى عن هذه الجنسية لأنك تعرفها هل عرفت أى نوع من الجرائد تكتب فيه . . .

وجم الجميع ، انتابهم صمت مدمر . . . فيما استمر صوت « بن دومة » يجلجل . . .

كلكم جهلة ، وحدك يا أرض بلادى ، يا خشباً للمسرح . . . وحدك تعرفين . . . فأى قتيل فوقك يملك أن يدفع عن نفسه تهمة سوء الظن ؟!

ادفعوا ثمن القهوة أيها الكلاب .

قال خالد :

مسكين هذا الرجل ، يعيش داخل فضاء نفسى شنيع ولا يوجد فضاء أوسع من الألم ، ما أقبح هذا العالم الذى يمتلىء بالحقد .

قال سالم :

« لهوت » انت دائماً هكذا ، لا ترضى الا بكلمات لا يفهمها أحد . . . تكلم بلغة نفهمها والا فصمتك أحسن من كلامك . قال « بن دومة » :

ـ دعوه يتكلم ، فالصمت موت ، دعونى أنهض أيها الكلاب ، فأنا لم أعد أحبكم .

تجمع وجهه فى لحظة نفور مفاجئة ، بدت الخطوط التى تهندس وجهه أكثر عمقاً وهى تتآلف وتقترب من بعضها ، لم يعد الحزن فى عينيه وحدهما . . وصل الحز ن حتى تلك اليدين الهزيلتين التى لا تعرف أين ومتى تستقران .

تأمله (نبيل) بعمق ، قال له :

كلنا سواء يا « بن دومة » فهذه الدنيا لا ترحم أحداً وأنا أعرف أنك لست مجنوناً كما يقولون ولكنك خفيف الظل .

لم يجبه ، رفع رأسه ناحية السقف ، تأمله بعمق نزت صفحة من العرق فوق جبينه الضيق فمر عليها باصبعه ليمسحها وأدار وجهه صوب الجانب الآخر للمقهى وبصق ، لم يكن يدرى ما اذا سمعوا صوت بصاقه ، أم أنهم لم يسمعوا لكنه حاول جاهداً أن يلفت انتباههم ، ولكنهم تجاهلوا كل حركاته ، وهنا داهمه احساس عميق

بالشفقة عليهم . . . هؤلاء الذين يدعـون أشياء كثـيرة يعرف بعمق أنهم لا يعرفون منها شيئاً . إنهم مجرد تلاميذ سذج .

وأعطاه هذا الإحساس مزيداً من الثقة ، تغلغـل فى أعماقه كماء رطب ، كانتصار رخيص ، وتصور الحلقـة التي صنعوها بمقاعدهم قريباً منه ، كأنها زنزانة قذرة !

وشكلت الرؤوس الخاملـة ، حلقـة دائـرية تترصـد حركته ، وأصبح بوسعه أن يفهم كل واحـد منهـم على نحو واضح . . . ، هؤلاء الأطفال الذين يقرأون خمسة كتب ، ثم يطيلون ذقونهم وشعورهم ، ويقضون أيامـاً على هذه الكراسى الصدئة يجترون كلاماً لا يفهمه أحد .

ما أسذج هؤلاء الأطفال ؟

لم تعجبه الجلسة ، شعر كأنه قط محاصر سدت عليه نوافذ المكان ، نهض . . . اخـتـرق زحـام المقهـى الملىء

بالوجـوه والأحـذية ، وانسـاب بجسمـه الضئيل كقطـة جائعة ، الى الشارع .

* * *

وها هى الرحلة تبدأ من جديد ، ها هو يرفع أشرعة الحزن وسط بحار القهـر والمظالـم ،ويمضـى والعيون لا زالت مفتوحة ، والضمائر ما تزال ميتة ، وكروش السادة تمتلىء بما لذ وطاب من الأكل واللباس وحقوق الضعفاء والمظلومين .

ومسح شاربيه ، وكانت تلك عادة ظل يمارسها تلقائياً ولمدة طويلة ، كلما انفرد بنفسه . ومضى يضم أطـراف الشعر النامى فوق شفته العليا ، وأحس بتراب الطريق تحت حذائه ، هشاً ليناً . . وقذف بحجر صغير فى الهواء فركض أمامه . . . ثم توقف فجأة.لم يعر انتباهه ضحك النـاس . . . ركز نظـره على المجموعـة نفسهـا . . . لا يزالـون يجلسـون كما تركهـم ربمـا كانـوا يعيدون نفس الكلام ويلوكون نفس الأحاديث التى يلوكونها كل يوم .

مساكين . . . ربما يكتشفون فى يوم من الأيام أن الكتب لا تعطى الحقيقة كاملة فالمعرفة تحتاج إلى شيء أكثر من أكاذيب الكتب ، ربما لو لم يكتشف الحقيقة لكان يجلس معهم الآن . . . يجتر الكلام الغامض المضحك ، ويتحدث بوقار وتصنع ويشترى احترام الناس بمظهره المهيب . واحد . . . اثنين . . . . ثلاثة . . . أربعة ، والحذاء الممزق يرسم علامات واضحة على الطريق ، وفيما مضى كان هو الآخر علامة جيل قادته أزماته الى هزيمة لا علاج لها ، وها هى بقية هذا الجيل تسير بخطى متلاشية ، تستقبلها ضحكات البشر الحيارى الذين لا يعرفون الحقيقة .

والدرب ما زال طويلاً يمتلىء بالبشر ، كل يبحث عن شيء ما . . . منهم من يبحث عن قرش أبيض أو زجاجة رخيصة ، تقوده للحظات الى عالم ينشده . . . ومنهم هؤلاء المتعبدون المحبون للصلاة والخائفون من عقاب الله . . . وهؤلاء الذين لا يرون الله كثيراً ، قدر ما يرون

عماراتهم وأطيانهم وصفقاتهم المريبة ، ثم « بن دومة » وبوابة النفس المغلقة ، والروح التى تقمصت من عصور سحيقة موغلة فى القدم جسد انسان يقاوم كل ما هو باطل ومزيف ويتعب كثيراً من أجل ذلك ، قامة مقوسة هدتها الأزمات فحرمتها لذة الشعور بحلاوة الحياة كما هى دون محاولة لكشف الجوانب الأخرى التى تخلق أزمات النفس ، وترفع أشرعة الحزن داخل الوجدان من تراه يذكر . . . من تراه يصدق . . . . ؟

التاريخ لو ينطق مرة واحدة بصدق فى وجه البشر لتحولت الحياة الى شىء آخر أفضل مما هى عليه الآن .

ما الذى يحدث لو أن « بن دومة » خرق الغياب وعادت الذاكرة ؟!

ماذا لو اعتلى هذه الشجرة ، معلناً الحقيقة
ـ أيها الناس ، أنا هو تاريخكم السحيق ، واننى لعائد

اليكم مبشراً ونذيراً وعلى الشجـرة « بـن دومـة » يتربـع ويرفع صوته .

ـ طريقـكم أن تفهمـوا انفسـكم ، فلماذا تأخـذكم اغفاءة الموت .

والـكل يتـوقف ، والنـاس يتجمعـون ، وتتعـالى الضحكات

ـ بن دومة ، يخطب ، بن دومة يرفع صوته . . .

ـ لقد تأملتـكم طويلاً . . . فما وجدتـكم الا شتاتـاً متفرقـين . تحنـون رؤوسـكم للمذلـة ، وتبـاركون جلادكم . . . فمتى تفهمون ؟!

ـ يا « بن دومة » نحن لا نفهم شيئاً .

ـ يا إخوتى ، سوء الفهم هو السفـاك . وأنتـم دائماً مجرد فريسة ، واحداً واحداً سوف تتحولون الى أشـلاء تمتلىء بها أكياس القمامة الملقاة أمام بيوت ضباط القاعدة الامريكية . . .

ـ يا « بن دومة » نحن لا نفهم شيئاً .

ـ سأقول لكم . . . الدنيا صارت بصقة كبيرة على وجه الانسان ، وأنا وحدى أعرف والأصحاب انصرفوا . . . وضعوا الصمت فوق مقاعدهم وساروا ، مروا بحدود المسرح ممتلئين بغطرسة المتفرج . . . تركونى مبتلاً بالأفكار وما فهموا .

ـ يا « بن دومة » كفى تهريجاً ، انزل أيها المجنون

ـ انزل أيها المجنون .

ـ انزل أيها المجنون .

ـ انزل أيها المجنون .

وبدأت الحصى الكبيرة تشج رأسه ، والناس لا يشفقون ، تمتد أياديهم الى كل ما فى الشارع لتقذف هذا الجبين الملئ بالتعاريج القاسية . . . وبدأت الدماء تسيل و« بن دومة » يغرق فى الصمت ، سقط من الشجرة والدماء تلون ملابسه المهلهلة ، واخترق الجمع . . .

وخطواتهم ترسم علامات حمراء على الرصيف . . .
وعندما وصل أزقة المدينة القديمة المعتمة أخذ يبحث
بصعوبة عن الزقاق الذى يقوده الى دكانه وشعر أن عينيه
لا تستطيعان تمييز أى شىء ، فاستند الى حائط متهدم
وكان الوجوم يخيم على الأزقة فتبدو بظلامها ووحشتها
كأنها زنزانة ضخمة .

وجد نفسه يجلس داخل زاوية بين جدارين
متهدمين ، لم يعد يرغب فى مواصلة المسيرة ، وأخذ يهوم
برأسه ويتشوق الى اغفاءة يغتصبها من خلايا النحل التى
تنز فى رأسه بعناد .

ـ سعادتك الكبرى يا « بن دومة » تتحقق فى إغفاءة
طويلة لا يعقبها صحو .

كان يعرف أنه لا يفعل شيئاً سوى انتظار هذه الاغفاءة
الابدية ولكنها لا تأتى . كثيراً ما قرر أن يفعلها بنفسه ،
ولكنه كان يخاف الموت ويحب الحياة ، وسرعان ما جاءته

إغفاءة كان يعرف أنها مؤقتة وانها ستوقظه فى الصباح عندما تنتصب الشمس فوق رأسه كقطعة فسفورية معلقة بعنق السماء ، وتظل تنزف على كتفيه ، وهو يحسها مثل مسامير ملتهبة ، تحرق عظامه عند ذاك ، يقوم « بن دومة » رافعاً أشرعة حزنه من جديد ، مواصلاً مسيرة الضحكات اليومية واحتمال الألم بدون مبرر .

الـصمت لا يتكلم



لا يضحك أبداً هذا الرجل . . . ولا يحب أحداً . . .
حتى « باولو » صاحب الخمارة ، الذى يقدم له زجاجة
« بوخة » مجاناً كل يوم . . . حتى هذا الايطالى السمين ،
لا يحبه ، يشتمه دائماً ويبصق عليه . . . لكن الايطالى
يضحك فى نهاية الأمر ويقدم له زجاجة مجاناً . . .

يخرج من الخمارة ، يجرجر طلعة مهيبة ، يشخص
بعينيه الى الأمام . . . لا يلتفت ، العباءة الرمادية
الصوف تنسرح فوق ظهره ، والطاقية البيضاء تغطى
أعلى رأسه ، ولفافة تبغ لا تغادر أعلى أذنه اليسرى أبداً ،
وأخرى يمتصها بشغف وينفث دخانها كثيفاً أمامه .

يمـر بمجموعـة من الشبـاب ، يتجمعـون دائماً أمـام المقهى المجاور للبار ، يحيونه ويتأهبون للقائـه يحاولـون إقناعـه بالجلـوس معهـم ، يتمهـل الرجـل قليلاً . . . يشملهم بنظرة هادئـة ثم يرفـع يده رداً على تحياتهـم ، ويمضى شاخصاً ببصره الى الأمام . وتحـت حائـط قريب يتمدد . . . يلتقط حجراً كبيراً يضعه تحت رأسه ، وينام وزجاجة البوخة بجانبه .

لم يكن أحد منهم يجرؤ على إقلاقه فى هذه اللحظة ، فهم جميعاً يعرفون فترة راحتـه . . . لا ، لم يكن ذلك ناشئاً عن احترامهم له ، بل هو الإهمال وعـدم الاهتمام وربما الاحتقار أيضاً .

لم يكن ثمـة من يهتـم به ، عدا هذه المجموعـة من الشباب التى تملأ المقهى دائماً ، ولم يكن ثمة من يعرف من هو هذا الانسان البائس ، الذى لم يكن له بيت ولا أسرة ، ولا هوية من أى نوع .

لا أحد يعرف متى جاء « بو كلبـاك » حتـى الشيوخ يقولون ، اننا فتحنا عيوننا فوجدنا « بو كلباك » ينام تحت هذا الحائط ، وزجاجة البوخة لا تفارقه وشفتاه لا تعرفان الابتسام ، وجسده لا يعرف المرض ، وكان دائماً ينام فى العراء ، تحت هذا الحائط . . . انه قصر « بو كلباك » كما كانوا يسمونه وكثيراً ما سأله أحد الشبان الذين يتجمعون أمام المقهى . . .

من أين جئت يا « بو كلباك » ؟

ـ لا تسألونـى من أين جئـت ، ولكنـكم يمـكن أن تتساءلوا ، الى أين يمكن أن يذهب انسان مثلى . . . .

* * *

الى الشرق من مدينة طرابلس تقع قرية « بو كلباك » تلة من البيوت والشجر والناس والمشـاكل ، ولـم يكن يأوى اليها الا فى المساء ، بعد أن يمضى يومه متجولاً وسط « الغابة » المجاورة ، يتجرع زجاجة البوخة التى يهديهـا له « باولو » كل يوم لقاء سخرية الزبائن منه .

لم تكن له أية قيمة ، لم يكن أكثر من « أبله » يمر به البشر فيسخرون منه ، يحبونه أحياناً ويجلسون اليه ولكنهم لا يحسون به وأحياناً كانوا يتفقون على مقاطعته باعتباره مجرد سكير بائس .

كل الناس يتجاهلونه كان هناك اتفاقاً سرياً أبرم بين الجميع على مقاطعته ، ولكنه بالرغم من كل ذلك لا يتأثر ، يظل يحمل نوعاً من الكبرياء غريباً ، يواصل رحلاته اليومية ، ولا يهتم بأحد وذات يوم افتى شيوخ القرية ، بحرمانه من حقه فى العيش بين الناس ، فطرد من القرية ، وهكذا عاش واستمر يعيش بلا قيمة كحجر مرمى قرب بحيرة مهجورة . . .

مع تعاقب الأيام نسى « بوكلباك » الناس . . . . كان يراهم فقط وهم يعبرون . . . كما يرى الأشياء القائمة فوق سطح الأرض . . . ثم مع الزمن اعتاد أن يكون وحيداً كقطبرى . . . وبصمت كان يختزن فى نفسه جميع الأسرار .

يهرب الظلام رويداً رويداً ، وتبدأ الشمس رحلتها اليومية ، تقبل من بعيد قرصاً أحمر فاتر اللون ، وترمى ، أشعتها التعبة فوق سطوح المبانى الشعبية القذرة ، وينار سرداب السوق ، كاشفاً عن جثة ممدة ملفوفة بمعطف مرقع مثقوب ، ووجه متطاول حفره التعب وحرقته الأحزان ومظالم البشر .

يتململ الجسد تحت وطأة الضوء الواهن ، وترف عينا ميت قام على مهل . . . عينان محمرتان ضامرتا الأهداب يتثاءب بصوت وحشي مبهم ثم يتمطى . وبقفزة هررية مذعورة ، يصبح خارج السرداب وفى يده عصا ضخمة اقتلعها من شجرة (سرول) فى الغابة المجاورة .

يرنو الى السماء بصمت معبر ، ثم يهز رأسه ويضحك ضحكته البلهاء المفلوجة ، وبطرف العصا يضرب الحائط المجاور ، ويواصل رحلته المعتادة نحو . . . الحانة التى أصبحت جزءاً منه كما أصبح جزءاً منها . . . يدخل فى انكسار ، لا يلتفت الى أحد ولا يهتم به أحد . . . كل

شيء كما هو لا يتغير ، الايطالى السمين لا يفارق مكانه ، والسكارى يتحدثون عن أشياء لا تهمه ومن مكان مستور ، يجلس محدقاً عبر الأشياء يلتقط عقب لفافة تبغ مشتعل ، يكمله بنهم . . . وثمة ضحكات عالية خلفه . . . يرميه أحدهم بعقب آخر وهو يضحك ، ثم تتابع أعقاب السجائر . ينهض ببطء . . . يدوس أعقاب السجائر ، ثم يجلس فى مكانه . لا يتكلم ، لا يغضب . لا يبتسم لا يقوم بأى رد فعل . . . فقط يظل يحدق عبر شيء لا يراه أحد غيره . . . وتتصاعد فى أعماقه لهفة منكسرة تمتد بين عينيه والعالم العالم الذى يعرفه جيداً عبر رحلاته الكثيرة وعبر تجاربه الحزينة .

فى أحيان كثيرة يغرق وسط عالم بعيد عن الأشياء والناس ، عالم لا يعرفه أحد غيره . ويظل جثة هامدة كأنه ميت . . . جثة مرمية فى ركن قصى من البار ، عيناه متسعتان ، ووجهه جامد وأمام عينيه تتراقص آلاف الأشياء . . . . وتنساب الذكريات . . . يعيش تجاربه

من جديد . . . وسط مدن وقرى يعرفها جيداً . . . تصبح عيناه بحراً تخطر فيه آلاف النساء الشهيات ، العصيات على الأخذ .

فى يوم من الأيام كان « بوكلباك » جزءاً من هذا العالم قبل أن تنساه البشرية .

ملعونة هذه الدنيا . . . ملعون . . . ملعون هذا العالم الملىء بالنساء الشهيات اللاتى لا يتذكرنه . . . كل البشر نسوة ، كلهم خرقوا المواثيق ، وخانوا العهود ، وتخطوا رسوخ الشرائع . . . وانحرفوا تاهوا عن الله يسمرون ويتنهدون ويضحكون ويسكرون ، ويجاهرون بالمعصية ، كأنها بطولة .

هاهم فى حلقات العشيات ، يشربون حتى الثمالة ثم يبحثون عن ملذاتهم . عبر أجساد الأرامل والمومسات اللاتى نبذهن الناس فبقين وحيدات تشب فيهن

الرغائب ، وروائح الذكور الذين أحبوا ثم هربوا خوفاً من كلام الناس .

فتيات عمرت صدورهن . . . نضجن ، وفى النفس قام الوجد ، يضحكن عالياً ، فيرن الليل ، ويخفق الصدر المتلع مع الضحكات ، لكأن زمناً سحيقاً نائماً كانت فيه الضحكات غافية تحت رماد الاستكانة .

وما يزال « بو كلباك » محدقاً فى وجه القمر . . . . ذلك الوجه الذى يشاركه سهرته دائماً ، حيث يرقد الناس والنسيان . . .

يبقى وحيداً فى مغاور الظلام والصمت وأحلام الجنس المحرمة .

هذا القمر حبيب الى نفسه ، يحس ذلك فيتمنى أن يعانقه ، يحاول أن يتحدث اليه فيشعر أنه عيى ، وتخرج الكلمات من فمه صوتاً لا ملامح له . . . تبتلعه الأزقة

القذرة ويمتصه الفضاء الوحشى .

فقط ، وفى الأعماق المسدودة تختلج دمدمة ، يحس « بوكلباك » أنه يفهم . . . لكن القمر والناس حجارة .

حتى « الغابة » المليئة بالأشجار والأسرار ، صارت مقبرة للتذكر المر . . . مقبرة فيها يدفن ذكرياته وأحزانه وأحقاده أيضاً .

***

ويظل « بوكلباك » الإنسان البائس ، يخطر بين البشر ، كفئران الحقول البعلية ، ينتصب أمام إحدى بوابات القرية بعد أن سافر القتلة وتناسلوا فى طول الأرض وعرضها . . . ملأوا المساحات حتى ضاقت بهم الأرض . . . ناس . . . ناس ، جائعون كالجراد ، كالنمل ، يبحثون عن كل شىء ، عدا العدل ، بشر « صادوا الغواية وصادتهم . . . رغباتهم مطاياهم . . . ذلك ما هو الآن وفيما مضى كان هو الآخر علامة جيل ،

تلاه جيل بل أجيال ، والصمت لا يتكلم ، لا يقول شيئاً .

* * *

وكان الرجل المنسى ، مهاباً بين قومه فى غابرات الحقب طلع من رحم الأرض عشية ليل وثنى . . . كان يتيماً وحيداً كما هو الآن . . . وكان يحب الرعى رعى البهم ورعى البشر . . . . وكان يعشق الوحدة ، والنساء . ولم يكن غبياً امتص أزمته وارتقى متن رغباته . . . كان يحيا وسط عالم يعرفه جيداً ويدرك تمام الادراك ما تريده تلك النفس المتطلعة . . النفس الملتهبة .

وعلى مر الزمن ، صار حكاية ، وصارت الحكاية أسطورة ، وتحولت الأسطورة بعد ذلك الى شيء يشبه النسيان .

ويتمتم فتخرج الكلمات من أعماقه كتلاً من الألفاظ

المبهمة كحياته ، فيهز رأسه يائساً ، بادئاً رحلة الضياع اليومية ، ميمماً وجهه جهة الغابة القريبة حيث تكتظ أشجار السرو بلا نهاية .



الاختيار



يتثاءب ، فتسقط خطوط الزمن على مساحة وجهه العريض المتهدل ، تتمدد كأفاع ضئيلة تغزو جبهته وأسفل ذقنه . تسقط « طاقيته » على أرنبة أنفه الدقيق الشامخ ، فيعيدها الى مكانها . . . فيما يترك لجسده المترهل المنهك حرية التمدد على الأريكة القديمة الموضوعة وسط شرفة حجرته فى الفندق .

تنغرس ابتسامة على شفتيه ، تحمل تعبيراً غير محدد ، يحاول أن يبحث لها عن معنى ، لكنه كان مرهقاً ومليئاً بكثير من الأحاسيس الغامضة ، وكان مقتنعاً بأن الوقت ليس مناسباً لمقارعة الهموم .

* * *

منذ غادر قريته وأقلته سيارة الأجـرة المتهالـكة التـى قادته الى المدينة . وهو يمتلىء بهواجس غريبة لم يعهدها من قبـل . . . حاول أن يبعـد نفســه عنهـا ، لكنـه لم يستطع ، تحادث وسائق السيارة ، دخل فى جدل طويل مع راكب يجلس الى جواره ، كان حديثـاً طويلاً أحس معه أن الراكب هو الآخر يريد أن يهرب من شىء ما فى أعماقه ، أنهـى الحـديث فجـأة وأخـذ يتأمـل الأشجـار المرصوفــة على جانبـــى الطــريق . . . وعاودتــه نفس الهواجس . . . قال فى نفسه : انه سوف ينساها بمجـرد وصوله الى « المدينة » التى أمضى عمره كله دون أن يراها سوى مرات قليلة ، لعل هذه هى المرة الثالثة أو الرابعة ، لا يدرى بالضبط ! وقد تغيرت حتى ما عادت نفس المدينة التى رآها منذ أمد بعيد .

قالـوا له : ان حفـلاً كبـيراً سيقـام فى المدينـة يحضره « الملك » ومجموعة من الناس « الكبار » . . . . وسـوف يجمعون كل المجاهدين ، سيعلقون على صدورهم قلائد

نحاسية ، وسيعطونهم مبلغاً من المال ، وستنشر صورهم في الجرائد . . . قالوا كلاماً كثيراً . . . لكنه فقط يريد أن يرى المدينة ، فمثل هذه الفرصة لا تتكرر كثيراً .

عندما وصل ، قادوه الى « الفندق » وأعطوه مفتاح حجرته وطلبوا منه أن يصعد ليرتاح . . . لكنه لم يتحرك من مكانه . تجمد الدم فى عروقه وهو يرى وجوهاً كان يعرفها تماماً . . . قال فى نفسه : إذا كنت سأقف مع هؤلاء فى صف واحد فتلك هى الكارثة . . . الذين لا يعرفونهم قد لا يهتمون بالأمر ، أما أنا فإننى أعرفهم جيداً ، رصاصاتهم كانت تثقب صدور المجاهدين - وخياناتهم سببت أكثر من هزيمة ، ومع ذلك يقفون اليوم فى صفوف المجاهدين !! أحس أنه مهزوم تماماً ، وداخلته فورة غضب ذكرته بشبابه ، عندما كان هذا الغضب يعنى موقفاً . . . ولكن ما حيلته الآن . . . وقد أخذ منه الزمن كل شىء ، ولم يبق له سوى الأحزان . . . والمواجع ؟!

فى الغـد تتـكـرر الهزيمــة ، ويعــاوده الغضـــب من جديد . . . سيبدأ الحفل ، وسيتواضع « الملك » نفسه ، ويجىء ليصافحهم ، بكل بساطة يتواضع « الملك » ويمد لهم يده واحداً واحداً ويصافحهم . . . وماذا لو انحنى الواحد منهم تلو الآخر وقبل يده ؟ ليس فى ذلك عيب ، بل العيب كل العيب فى رفض هذا الأمـر ، لأن معنـى ذلك أنه ليس مجاهداً ؟! بالاضافة الى أنه قد يكون من أولئـك الـذين يرون رأياً آخـــر لا يحـــب « الملك » أن يسمعه . . . ربمـا لا يستـطيع أحـد أن يعـرف ما تخفيه النفوس ، لكنه بالتأكيد لن يكون أكثر من ذلك ، فقـد قالوا لهم : ان « الملك » هو الذى قاد كل المعارك ، وحرر البـلاد ، ولـولاه ما تحقـق شىء ؟! وامتــلأت أعماقــه بالأسى ، فهو يعرف الحقيقة على وجه الدقـة ، يعرفهـا بعدد الندوب والحفر التى يمتلىء بها جسده الواهن ، بعدد الجثث التى سقطت فى مواجهة عدو لا يرحم قرب هذا الشاطىء نفسه ، وسط هذه الساحـة بعينهـا وعبـر هذه

المساحة الزرقاء الهائلة من المياه ، التى تلتف حول المدينة ، كانت بوارجهم تقذف بالحمم . . . لكنهم أبداً ما استطاعوا أن يطأوا الأرض . . . . فقد تحول المجاهدون الى جدار صلد لا يخترقه الرصاص ، ولا تهده مدافع البوارج ، كان الشعب بأكمله هو القائد . . . فلماذا يستوردون هذه القيادة المزيفة ويكذبون على الله ؟!

* * *

من نافذة شرفته جالت عيناه عبر شوارع المدينة الهادئة ، يتذكرها جيداً . . . هذه الشوارع ، ما تغير فيها شيء منذ زارها آخر مرة . . . جاءها فارساً شاباً ، يمتطى صهوة جواده وعلى كتفيه بندقيته القديمة ، ولم يكن أحد فى استقباله سوى ترابها الأسود وأشجار النخيل والزيتون ، ومدافع الايطاليين التى كانت تنتشر على طول الساحل مثل بقع سوداء تشوه هذه المساحة الهائلة من الزرقة والصفاء .

كان واحداً من الشباب الذين لم ينتظروا الايطاليين حتى يتوغلوا فى الداخل ، ويغتصبوا الأرض ـ سمع النداء فترك كل شيء ولباه ـ انضم الى رفاقه ، وذهبوا الى حيث ثبتت مدافع العدو تنشر الدمار ، ليس فى أيديهم سوى بنادق قديمة متهالكة عفى عليها الزمن ، ويقين ثابت بأن الأرض أرضهم ، ولا أحد يستطيع أن ينتزعها منهم !

وهكذا انطلق الفرسان الى المدينة ، وكان واحداً منهم . ولم يكن ثمة مبرر للخوف أو الحزن ، فالذهاب الى الموت فى سبيل الوطن شرف لا يناله سوى القلائل الذين يهبون أنفسهم للوطن .

إيه ما أتعس تلك الأيام وأحبها الى قلبه أيضاً !! كانت تحمل من المواجع مثلما تحمل من العزة والكرامة ، وقتها كان الرجل رجلاً . . . والإيمان ما يزال متأصلاً فى النفوس ، وذرة واحدة من التراب تساوى كنوز الدنيا

بأجمعها . . . آه لو تعلمون أن هذه الأرض ليست مجرد تراب ، أنها مزيج من الدماء وجثث الشهداء الـذين لا يذكرهم أحد !!

***

كان يجلس فى الشرفة وقد ألقى رأسه الى الخلف ، فيما كانت يداه الواهنتان تتمددان فى دعة على ركبتيه ، كان مسند الأريكة الخشبى يقلقه ، وأشعة مصابيح الشوارع تنغرس فى عينيه مثل سهام حادة ، لكنه كان يحـاول أن يصطاد دفقة نسيم تنعش جسده المنهك ، عاودتـه نفس الابتسامة الساخرة ، فما كان يتصور أن الانسان يمكن أن يقضي ليلة وسط هذا النتوء الزجاجى المربع الذى يلتصق بنافذة حجرته ، لكى يصطاد النسمات ، فقد تعود دائماً أن يتمدد وسط نسيم صاف لا تخنقه الجدران أو تزعجه أشعة المصابيح الكهربائية التى تنغرس وسـط الشـوارع الخالية ، بقعاً صفراء لا مبرر لها .

اكتنفه الليل الجائر الخانـق الـذى أصبـح الآن يلف

الشوارع . كان الصمت كئيباً حقاً ، لم يكن كصمت قريته الذى كانت أوراق الأشجار خلاله تبدأ أغنياتها الرتيبة المنعشة . وبدا كما لو أنه لم يكن هناك أحد غيره فى هذا الفندق العتيق الملىء بخليط عجيب من البشر .

واصلت مروحة السقف دورانها الممل ، الذى يضرب دون جدوى ، الهواء الخانق الذى لا يمكن التغلب عليه ، وأخذت الحرارة تنبعث من كل ركن فى الغرفة فيما كانت الرطوبة تملأ الجدران ، وتخنق الأنفاس . تألق العرق على وجهه ، ومن وقت لآخر كان يجففه بمنديل عريض علقه على ياقة قميصه الطويل الواسع الأكمام كانت أنفاسه مجهدة ، لأن هذه الأعوام قد أخذت منه ضريبتها ، لقد أمضى الكثير من الليالى الساهرة . . . لكنه الليلة عرف أنه لن يكون بمقدوره مواصلة السهر . . . فك أزرار قميصه ، وأسقط بلغته الصفراء الجديدة ، وكان باستطاعته أن يرى عصاه المفضلة تلمع بزخارفها فى الركن حيث تركها .

تحول الى الشرفة من جديد ، وأخذ يتنفس بصعوبة واتضحت معالم التجاعيد بحدة على وجهه البرونزى الذى يكسوه العرق ، وتقوس بعض الشيء ذلك الشارب الكث الذى أصبح الآن مبللاً . . . أخذ ينظر الى الشجرة الضخمة المظلمة التى تبدو أكثر إظلاماً من الليل ، كانت ترتفع فوق الشرفة وتنصهر فى الظلام كما لو كانت تنتظر اللحظة التى تستطيع فيها أن تخبر العجوز بالكثير عن حياتها الطويلة قال لها : لماذا أنت مزروعة هنا مثلى ، غريبة عن عالم لا يمت اليك بصلة ؟ ان هذه الأحجار المتراكمة الشاهقة والشرفات الزجاجية اللامعة ، ليست لك كما انها ليست لى ، أننا وحيدون وسط هذا الركام الجامد الذى يملؤنا احساساً بالمرارة والاختناق .

أخذت المروحة تلف وتدور وهى تواصل مطارداتها لدفقات الهواء المتقطعة الساخنة . . . عندها قرر العودة الى سريره . . . وتمدد ، وعلى شاشة الرؤى المعتمة

سبحت مشاهد اليوم الطويل الذى انقضى دون فائدة . . . كان متعباً ، لكنه فى ليلة مؤرقة كهذه لا يستطيع الا أن يتغلغل فى سراديب ذاكرته ، ويتجول عبر السنين القريبة والبعيدة ، ويحرك الذكريات التى أصبحت أساطير . . . لكن جسده المنهك العجوز لم يستطع أن يغالب خدر النوم الذى بدأ يسرى فى أوصاله .



تسلل ضوء الفجر من النافذة فأيقظه ، ولم تكن النسمات أليفة ومنعشة كما تعودها ، لكنه نهض وصلى الفجر ، ثم شرع فى جمع حاجياته وارتداء بقية ملابسه . . . وما ان هم بمغادرة الغرفة حتى سمع طرقات حادة . . . فتح الباب ، قابله موظف سمين يرتدى حلة افرنجية وطربوشاً . . . ذكره بالموظفين الأتراك الذين كان يراهم كثيراً فى طفولته ، قال له : أنهم ينتظرونك هناك . . . لا تتأخر . . . فكل المسؤولين حضروا ، وملأوا المنصة فى انتظار « الملك » وكل رفاقك

أيضاً . . . لا تتأخر كثيراً .

لـم يجبـه . . . أغلـق باب حجرتـه . . . تفقـد بقية حاجياته ، ثم غادر الفندق على مهل . . . كانـت قاعـة الفندق غاصة بالايطاليين . . . نفس الوجوه التى ملأت جسده بالرصاص والشوارع كانـت مليئـة بالصخـب ، ومزروعـة بنفس الوجـوه الحمـراء تنتشر كالوبـاء عبـر الطرقات . . . وصـور « العجـوز » الـذى جعلـوا منـه (ملـكاً) تغطـى الجـدران . . . وأحس أن بقـاءه هنـا خيانة . . أحس أنه يخون نفسه ويخون رفاقه . . . أحس أنه فى هذه اللحظة بالذات ينبغى أن يختار . . . إمـا أن ينهى حياته ذليلاً وإما أن يظل حراً كما كان دائماً . . . . كان يعرف أنه قد بلغ نهاية المطاف ، فتسعون سنة ليست بالزمن القصـير ، اتجـه الى محطـة الحافـلات ليعـود الى قريته . . . وفى أعماقه يقين ثابت بأن الاكاذيب لا تدوم طويلاً وان الحق سينتصر فى نهاية المطاف .

* * *

في المساء فتح جهاز المذياع ، وسمع المذيع يردد اسمه ضمن قائمة المجاهدين الذين انحنوا أمام « الملك » ليعلق فى أعناقهم قلائد من نحاس . . . ضحك طويلاً ربما لأول مرة فى حياته ، ضحك حتى فقد وقاره المعهود . . . . وتحسس عنقه طويلاً . . . إذ ربما نجحوا فى وضع هذه القلائد النحاسية على رقبته وهو لا يدرى . . ربما . . . !!

لكن الاطمئنان ملأ أعماقه من جديد ، ربما لأنه يدرك تماماً أن الذين حملوا السلاح حقاً فى وجه العدو لا يمكنهم أن يركعوا أمام الخونة .

تــلك الايــام

ساكنة كل الأشياء كانت .

وأشعة الشمس تسقط بانحناء حاد على جسده فتلهبه ، وبالرغم من كل ذلك ظل متمدداً فى استرخاء على احدى كراسى الكلية يتفحص ساقى طالبة تمنى أن تكون زوجته عندما كان طالباً بالسنة الأولى .

لم تعجبه الجلسة فقرر أن يختار موقعاً جديداً ، وناداه أحد الأصدقاء فلملم نفسه وتحرك باتجاهه ، كان صديقه يتحدث الى طالبة قبيحة تناقش شعر ذى الرمة ، وسمعها تقول بصوت خشن : ان كولن ولسن كان حماراً لأنه لم يدرج ذا الرمة ضمن قائمة الشعراء اللا منتمين ، الذين كتب عنهم » .

فقرر أن يبتعد عنهما .

دون أن يدرى وجد نفسه داخل المكتبة ، لم يشعر بالمسافة التى قطعها ولا أثار انتباهه صياح الطلبة وزحمة المرور.وحيداً وجد نفسه يجلس الى منضدة خشبية قديمة نقش عليها الطلبة أسماء صديقاتهم وعديداً من القلوب التى وخزتها سهام حادة . وعلى الجدار المقابل كان ثمة ملصق كبير الحجم تتربع داخله صورة وجه يعرفه جيداً فهو أحد الذين كانوا يعملون فى هذه المكتبة . . . تحت الصورة كتب بخط عريض ! انتخبوا الحاج . . . فهو خير من يتكلم فى مجلس النواب » .

تأمل الملصق ملياً . . . ثم رسم على شفتيه ابتسامة باهتة . . . وعاد الى تأمل الوجوه المنكبة على القراءة .

وقال له الجالس الى جواره . . . .

ـ تصور عمك الحاج . . . سيصبح أحد نواب الشعب . . . سوف يستبدل دراجته المتهالكة بسيارة



فارهة بعد أيام من فوزه فى الانتخابات . . . أمر يدعو الى السخرية . . . أليس كذلك ؟

لم يجبه . . .

كان يعرف أن صاحب هذه الصورة لن يصبح نائباً . . . وانه سيعود الى مكانه المعتاد أمام مدخل المكتبة بعد انتهاء الانتخابات مباشرة . . . . لأنه ببساطة كان مجرد صنيعة لأحد المرشحين المحترفين . . . دفعه الى هذه اللعبة من أجل تفتيت الدائرة الانتخابية لخصمه . . . وبمجرد حصول « الحاج » على أى مجموعة من الأصوات ، يبادر بالتنازل عنها للمرشح الذى استأجره . .

انتبه على صوت الجالس الى جواره . . . وهو يعاود الحديث . . .

ـ فى كل مرة تتكرر هذه المهزلة التى يسمونها انتخابات . . . الجميع يعرفون انها مجرد لعبة سمجة ،

الناخب والمنتخب من تأتى به الحكومة ومن تأتى به قبيلته . . . من يحقق الفوز بثروته ومن يحقق الفوز عن طريق توصية من السفارات الأجنبية . . . الكل يعرفون أن الفوز يعنى مزيداً من المكاسب الشخصية . ولا شيء يتحقق للناس . . . ومع ذلك فإنهم فى كل مرة يبدأون حملتهم الانتخابية بشعارات ما أبعدهم عنها .

فكر أن يجيبه بأن مهزلة الانتخابات ليست هى المفسدة الوحيدة فى النظام ، لأن جذور النظام نفسها عفنة لا بد من اقتلاعها . .

لكنه رأى أن الوقت ليس مناسباً لاثارة مثل هذه القضية فى مثل هذا المكان .

كانت أشعة الشمس تسقط بانحناء حاد من النافذة الشرقية ولم يكن ثمة أحد آخر ، فقرر أن يتمدد من جديد على الطاولة التى كانت أشبه بخريطة لم يكتمل رسمها . وبدأ يحس بالشمس تداعب جفنيه المغمضتين ،

وذكرى شيء مفـرح حدث له البارحـة تثـير فيه بهجـة مذهلة ، حاول أن يتذكر هذا الشيء لكنه أدرك أن عملية التذكر تفقده هذه البهجـة المؤقتـة ، ببـطء تحـرك ناحية مشرفة المكتبة ، وقف أمامها صامتاً وخيل اليه انها تنظـر اليه بسخرية .

ـ اعطنى الجبرتى

ـ رقم التصنيف ؟

ـ لا أعرف .

ـ اسمه

ـ لا أعرف .

ابتسمت نفس الابتسامة الساخرة ، ثم غابـت قليلاً وسلمته الكتاب .

عاد الى مكانه ، ودخن أربعة لفائف من التبغ الردىء قبل أن يبدأ القراءة . وقال له الجبرتى بصوت ساخر :

ـ إن المماليك الجراكسة يا صديقـى المـزق ، كانـوا

يلبسون ملابس أهل البلد ، وكانوا يحكمونهم بهذه الملابس » .

توقف قليلاً . . . قلب صفحات الكتاب ، انتابته فكرة ان يكتب بحثاً عن ظاهرة الحاكم المستورد فى التاريخ . . . وفكر أن يكون عنوان البحث « ظاهرة الحاكم المستورد فى جزر واق الواق » لأن أحداً لا يعرف هذه الجزر ، ولأن كل الحكام لن يعترفوا بسهولة بأنهم مستوردون . . . جميعهم يولدون حكاماً ويموتون حكاماً . . . ولم يحدث أن جرب واحد منهم أن يكون من أولئك الذين يسمونهم « الرعية » .

سيطرت عليه هذه الفكرة للحظة . . . ودفعته الى أن يتساءل

ـ هل يمكن أن يكون التاريخ أحد المنافى الطيبة ! !

وعبر السؤال الذى بدا لأول وهلة بدون إجابة ،

الى أن يخمن ويطرح على نفسه الأسئلة ويتعذب .

* * *

سمع خطوات تضيع فى فضاء الفناء ، كانت تبدو بطيئة متثاقلة مصحوبة بضحكات خيل اليه انها أشبه بشهقات البكاء .. ولملم نفسه واخترق ممرات المكتبة الكئيبة . . . وودّع المشرفة بإبتسامة باهتة . ثم قفز بخطوات واسعة جداً الى الشارع . . . كانت الاشارة الخضراء مفتوحة فمر مسرعاً أمام العربات المزمجرة متجهاً الى الكلية .

كانت سيارة الطالبات محشوة بالاجساد الناعمة وجمع كبير من الطلبة يراقب عملية الشحن بفضول ونهم .

وقال له صديقه : هل وجدت مراجع « قطرى بن الفجاءة » ؟! تمتم قائلاً :

ـ لن أبحث عنه ، ساقرأ الخوارج أولاً .

أضاف صديقه : ان ما كتب عنهم لا يصل بك الى الحقيقة خاصة الكتب القديمة التى تعتمد الأوهام قبل الحقائق .

قال له : ان الانسان يبحث دائماً عن شىء يتعلق به ، ربما قادتنى الأوهام الى بعض الحقيقة . . . الأوهام مفيدة فى بعض الأحيان ؟!

بيد أن الصديق لم يفهم فانصرف عنه الى فتاة نسيت أن تضع على سيقانها قماشاً من أى نوع !

راقب المشهد قليلاً ثم ابتسم ابتسامة لا معنى لها وقرر أن يعاود التمدد على نفس الكرسى مرة أخرى وعندما توجه اليه وجد أربعة من الطلبة يلتهمون شطائر معبأة « بالتن والهريسة » بنهم شديد وشرس كان يعرف انه واقع فى مغامرة ابدية لا معقولة ورمق الشبان الاربعة الذين كانوا ما يزالون يمارسون عملية الاجترار .

امتدت الى جذوره لزوجة مقززة دفعته الى الانحدار
من جديد الى اسفلت الشارع وفى داخله ثورة جيل كامل
تريد أن ترى النور .



الشجرة



مثل جبل ضخم ، كانت تمتد الى السماء بقامتها الاسطورية . لا أحد يعرف متى نبتت ولا كيف ! لكن الجميع يؤكد أنها كانت هنا منذ الأزل ، وأنهم فتحوا عيونهم أول ما فتحوا على رؤية هذا العملاق الشامخ الذى يحضن بأذرعه الضخمة المتشابكة منازل القرية وطرقاتها .

وهكذا أصبحت الشجرة سراً من أسرار القرية ، تصاغ حولها الحكايات وتنسج الأساطير وتعيش فى وجدان الناس معجزة من المعجزات وعلامة من علامات الاستفهام الضخمة التى ظلت تسيطر على سكان القرية وتقنعهم يوماً بعد يوم بسرها الإلهى الذى تعجز قدرات

البشر المحدودة عن فهمه وكشف دلالاته ومعانيه ؟!

كثيرون طمعوا فى تحقيق المعجزة ، والوصول الى السر ، لكنهم فشلوا سقطوا فى منتصف الطريق ، أو تاهواعبر دهاليزها وفجواتها وأغصانها المتشابكة ولم يعودوا . ومع كل ضحية جديدة من ضحاياها تصبح الاسطورة أكثر رسوخاً وعمقاً ويزداد وهجها المقدس تبلوراً واضطراماً فى الأعماق . وعندما يتساءل الأطفال عن سرها يأبى الكبار إلا أن يعطوهم نصف الحكاية ، تاركين للزمن تكملة بقية الأسطورة التى عاشت مع الناس وتأبى أن تموت .

يقول طفل لأمه وهو يختبىء فى حضنها خلال أمسيات الشتاء الباردة .

- حدثينى عن الشجرة ؟
وترتعش الأم وتبسمل قائلة :

- تحصنت بالله . إنها شجرة مسحورة يا ولدى ، فى

قمتها يتجول آلاف المردة والغيلان والأولياء الصالحين ، انها عالم الآخرين الذين لا نراهم يا ولدى . . . وقانا الله شر أشرارهم ونفعنا ببركة الأولياء منهم .

وهكذا فرضت هذه الكتلة الخشبية الهائلة سيطرتها على القرية بكاملها ، أصبحت علامة يهتدى بها المسافرون ، وملاذاً لمن يريد أن يتقى أشعة الشمس الحارقة ، بينما استطاع اللصوص أن يحولوا دهاليز جذعها الضخم الى مخبأ آمن لهم ليلاً حيث لا أحد يفكر فى المرور بقربها . . . ومع الأيام وجدت من يتبرك بها ويملأ جذوعها القريبة من الأرض بقطع مختلفة من القماش الملون المقتطع من بقايا ملابس قديمة .

لكننى ظللت مع كل ذلك اعتقد أنها مجرد شجرة شجرة لا تختلف عن بقية الأشجار التى تمتلىء بها القرية ، مجرد هيكل ضخم لشجرة عجوز مجهولة النسب . لا فائدة منها . ولا مبرر لبقائها كل هذه السنين .

أضطرب أحياناً وأكاد أصدق الأسطورة ، يقنعني خيال جدتي وقدرتها على نسج الحكايات واختلاق الحوادث الغريبة التي تبدو كأنها أحد الأحلام الغامضة ، وتحاصرني أحاديث الناس ورواياتهم عن ذلك العالم الغريب الذي ينزرع بين أغصان الشجرة المتشابكة ، اناس من عالم آخر لا نراهم ، وارسم الف صورة لهذه المخلوقات الغريبة . اتصور شوارعهم غير شوارعنا وملابسهم غير ملابسنا وملامحهم غير ملامحنا واحلامهم غير أحلامنا ومشاكلهم غير مشاكلنا ونساءهم غير نسائنا . . . لكنني سرعان ما اقطع حبل اوهامي . . لاقنع نفسي بان كل ذلك مجرد خيالات مضحكة . . فالشجرة لا يمكن ان تكون سوى شجرة . . شجرة عجوز لا تنفع احداً سوى اللصوص والمنبوذين والهاربين الى ظلالها من لفح الشمس الحارق . وهي ايضا لا يمكن ان تضر احداً الا اذا سقطت عليه .

***

وهكذا بدأت أحس أن المسألة لا تعدو ان تكون وهماً

نما فى النفوس . وتشعبت جذوره فيها كما تتشعب جذور الشجرة العجوز فى أعماق الأرض ، وأصبح من الصعب اقتلاعه أو القضاء عليه .

أقول لهم هذا الكلام ، لكن أحداً لا يهتم بى ، تظل كلماتى مجرد كلام طفل لم يتجاوز الثانية عشرة مجرد ثرثرة لا تعنى شيئاً ولا تقود الى شىء .

أبى يقول لى : اهتم بدروسك ولا تجلب لنا المصائب ويصفر وجه أمى وهى ترجونى أن أكف عن ترديد هذا الكلام الذى يغضب الأولياء القابعين خلف الشجرة وشيخ الجامع يقول أن المدرسة أفسدتك ، يعلمونكم الكفر لكى تجلبوا لنا المتاعب . .

ومدرس الفصل يقول أن المشكلة أكبر منى ومنك ، لأنها تتعلق بنوع من القناعات من المستحيل انتزاعه بسهولة .

لكن نفسى لا تهدأ ، تزداد حيرة وارتباكاً ، ويوماً بعد

يوم امتلىء داخلياً بشحنة تحد هائلة ضد هذه الشجرة .

ما هو غريب حقاً ، اننى لم أكن أدرى ان علامات الاستفهام القابعة فى أعماقى ستقودنى الى مغامرة أتحول بعدها الى واحد من هؤلاء الـذين حاولـوا اكتشـاف سر الشجرة وتمزيق هالتها الاسطـورية التـى ظلـت أحقابـاً طويلة تشـع فى أعماق سكان القـرية وتمتـد أشعتهـا الى القرى المجاورة وها أنا بعد أن تسلقت الفرع الأول منها أسلم بعجزى عن الاستمرار ، تماما كما فعـل كثـيرون غـيرى ، وفى الحقيقـة اننـى لم أعلـق أهمية تذكر على صعودى أبعد من ذلك لم يكن الأمـر مثـيراً ولا مهماً ، فجأة اكتشفت اننى ارتكب حماقة لا مبرر لها ، وقررت أن أعدل عن الفـكرة ، وبـدأت ازيح الأوراق والأغصـان الصغيرة وأهبط . . . . وعندما استقرت قدماى على أحد الأغصان القريبة من الأرض وبدأت أحاول القفز لاغادر الشجرة ، وصلت الى أذنى صيحات حادة وضحكات ، كانت ضحكات سخرية . . . ووسط الضجة استطعت

أن أميز صوت ذلك الأحدب القزم العنيد مثل بغل . . .
بدت كلماته وشتائمه وقحة كعادته

- خواف لا تقدر على الصعود يا . . . . .

وشعرت بدمائي تفور ورعشة هائلة تكتسح جسدي ، وعندما قفزت الى الأرض كانت حدقات عيون الأطفال الذين يلتفون حول الشجرة تمتلىء بضحكات هائلة ، ضحكات فيها من السخرية الكثير ومن الشماتة أيضاً ، فيما بدا الأحدب يطلق ضحكات حادة متقطعة بدت كأنها صوت (جدى) صغير .

كنت أعرف أن الجميع يقولون عنه انه يملك شجاعة الشيطان نفسه ، وان السر يكمن فى أبيه ذلك العملاق الذى تعود الناس أن يروه ثملاً يترنح وسط أزقة القرية مثل فيل جريح . ولا يجرؤ أحد أن يعترض طريقه ، كانوا يخافونه جميعاً ، القرية كلها كانت تخافه وتتجنبه لكن أحداً لا يستطيع أن يستغنى عن خدماته فما من أحد غيره يستطيع أن يخاطر بالنزول الى الآبار الخربة المهجورة

عندما يتطلب الأمر ذلك . . . وما من أحد غيره يستطيع أن يتسلق أشجار النخيل الملساء ليقص « عراجين » البلح . . . وما من أحد غيره يستطيع أن يسافر على قدميه مسافات طويلة للبحث عن جمل ضائع أو ايصال خبر هام الى قرية نائية . كان وحده يتميز بكل هذه الصفات ، ووحده يرتكب كل الموبقات . . . وها هو يضيف موبقة أخرى الى موبقاته بانجابه لهذا الأحدب الوقح الذى يتحدانى ويسخر منى ؟

ـ تقول انها مجرد شجرة ؟! لماذا خفت اذن . . . اصعد اليها وسوف تحترق داخلها مثل فأر !

يقول ذلك وهو يرسم ابتسامة خبيثة على شفتيه اللتان تبدوان منتفختين مثل (باذنجانة) ريانة ، كأنه متأكد أننى قررت الامتناع عن اعادة المحاولة الى الأبد .

وهكذا جمعت كل أطفال القرية الذين كانوا يتجمعون تحت الشجرة ووضعت تلك (الباذنجانة) أمامهم ،

وقلت لهم اننى سأصعد من جديد .

ودون أن أنتظر ردود فعلهم ، وجدت نفسى أخلع حذائى وأتعلق مثل فأر نزق بأقرب أغصان الشجرة الى الأرض ثم أكور أعضاء جسدى الواهن واستجمع كل قوتى ثم أقفز الى الغصن الذى يليه ، ودون أن أشعر وجدت نفسى أنساب بين الأغصان مثل عصفور أسكره ندى الصباح ، وعندما وجدت نفسى أتوغل أكثر من اللازم والأجساد التى تركتها على الأرض منتفخة وممتلئة أصبحت تبدو لى مجرد بقع صغيرة صفراء لا ملامح لها . . . عندها شعرت بعجزى عن المواصلة ، شلت قدرتى تماماً وتملكنى الرعب أحسست أننى أقدم على تجربة غامضة وغير مضمونة النتائج لكننى تذكرت أنهم هناك ، على الأرض ، ينتظرون ، وتخيلت ذلك الأحدب القزم الذى كان يبدو لى الآن مثل بقعة حبر قاتمة على صفحة بيضاء . تخيلته يتصبب عرقاً ويمتلىء انكساراً . . . وتملكتنى نشوة حماس عارمة ، حماس

انسانى كل خوفى واضطرابى خاصة عندما وجدت نفسى أطل على عالم فسيح يمتد أمامى ، عالم آخر مذهل حجبته عنى أتربة القرية ومبانيها الطينية الهرمة .

كانت تبدو أمامى مساحات هائلة مترامية خضراء ، أيقنت أنها لا بد أن تكون جزءاً من ذلك العالم الغريب الذى لا يراه أحد ، لكننا نعرف اسمه الذى يتردد مرات عديدة كل يوم على ألسنة جداتنا وأمهاتنا ، خاصة فى فصل الصيف عندما ينتصف النهار ويشتد القيظ ويلتهب تراب الأزقة الضيقة بسعير الشمس الحارق ، عندها تقفل أبواب البيوت تلقائياً وتقول لك جدتك وهى ترتعش : ادخل الى فراشك ونم ، فاللعب خارج البيت ممنوع .

لكنك تركب رأسك الصغير وتقرر الخروج بأية وسيلة .

عندها تقول لك محذرة :

ـ على كيفك ، اذهب وألق بنفسك بين فكى « سلاّل

قلوب » فهذا وقته المفضل للفسحة . . . . يغادر قمة الشجرة ويأخذ فى التجوال وعندما ينهى جولته يعرج على القرية ليخطف من يقابله من الأطفال .

كان معظمنا لا يصدق هذه الكذبة الأزلية ، لكننا نمتثل للأمر ونقبع فى زوايا الحجرات الرطبة حتى تميل الشمس للمغيب عندها ننطلق بحرية داخل دروب القرية الملتوية وتبدأ رحلتنا مع القمر والحكايات . لكننا أبداً لا نقرب الشجرة فهامتها المخيفة التى تشق حلكة الليل تزرع رعباً حقيقياً فى نفوسنا ، بحيث أنك لو شاهدتها تتربع وسط الفضاء الشاسع ، وتمد فروعها وسط الظلام مثل اخطبوط هائل ، لا بد أن يتبادر الى ذهنك انها لا بد أن تكون مصدر الظلام وان الليل يتصاعد منها كأنه مساحة هائلة من السحاب المنذر بالمطر .

* * *

أخذت أتأمل المنظر بانبهار كامل ، حتى نسيت جميع

الأطفال الذين ينتظرون نزولى و استغرقنى المشهد تماماً .
مشهد لم تألفه عيناى ولا رأيته من قبل وأنا الذى لم يتعود
سوى رؤية أكوام القمامة التى تتجمع أمام البيوت ،
وروث البهائم الذى يملأ الطرقات ، والرمال الصفراء
الملتهبة التى أتنفس ذراتها كل يوم . كنت وسط غابة
الأغصان المتشابكة امتلىء بنشوة غريبة . لعلنى أتعرف
عليها وأتحسسها لأول مرة فى حياتى . لم نكن نعرف
طعم الدهشة ولا النشوة لقد ألفنا الأشياء التى كنا نراها
كل يوم حتى بتنا نملها ونكرهها وحتى خيل لنا أن العالم
كله لا يحتوى الا على هذه الأشياء المكررة الكريهة . . .
ففى كل مكان لا بد أن يشاهد الانسان نفس الأشياء ،
نفس الأزقة المتربة المليئة بأكوام التين الشوكى ونفس
المساكن الطينية المهدمة ، ونفس الوجوه السمراء الداكنة
التى تحمل من الغبار أكثر مما تحمل من الملامح . كانت
عيناى تشاهد لأول مرة عالماً يختلف ، وفى أعماقى تتربع
دهشة عارمة أحالتنى الى كتلة من الصخر . فيما كانت

الأرض بساطاً أخضر مليئاً بأشجار سامقة ومتناسقة . . . . وبعيد جداً ، كان يبدو البحر شريطاً أزرق يميل الى السواد وعلى الجانبين تنتشر تلال صغيرة سوداء كأنها حراس من المردة .

قلت فى نفسى : ماذا لو كان الأمر حقيقة ؟! لقد هزأت بالجميع وأيقنت أن الأمر كله لا يعدو أن يكون وهماً من الأوهام الموروثة الساذجة ، لكن الوهم يتحول أمامى الى حقيقة الوهم الذى هزأت به ، ورفضته ، يتجسد أمامى واقعاً ليس فى استطاعتى نكرانه ، شيئاً ملموساً يدهشنى ويمزقنى .

ارتعشت أطرافى ، وتذكرت أننى أرى ما لم يره انسان من قبل . حتى الذين رأوه لم يعودوا ، غابوا وابتلعهم العملاق الذى لا يرحم من يجسر على اكتشاف أسراره والنفاذ الى اقطاعياته الواسعة العجيبة . وها هو العملاق يحظى بصيد جديد . بمغامر نزق آخر ، أقدم على مغامرة أكبر منه ، ها أنا بين يديه ، أراه يفتح فاه ليبتلعنى ، ها

هى دنياه تجتذبنى وتسحرنى كما سحرت من أقدموا على المغامرة من قبلى ، انها هى بدون شك ، اقطاعية « سلال قلوب » خاطف الأطفال وعدوهم ، ترى لماذا لم يستطع أحد أن ينتزع منه كل هذه المساحات الشاسعة التى يهيمن عليها وحده ، لماذا يمتلك البحر والجبال والمزارع ونظل نحن نتشمم روائح القاذورات وتمتلىء قلوبنا هلعاً عندما يتردد على مسامعنا اسمه . . . لا بد أننا أضعف من أن نتحداه !

وصاح بى أحد رفاقى . . . بدا صوته كأنه أزيز بعوضة ، ضئيلاً حاداً متقطعاً حتى اننى لم أتمكن من سماعه ، نظرت الى أسفل وأشرت اليه بأننى لم أسمع شيئاً ، وأخذ يصيح بصوت عالٍ فيما بدا جسمه على الأرض كأنه جثة صرصور ميت ؟!

قال لى :

ـ ماذا ترى الآن ؟

أجبته بصوت متهدج لاهث .

ـ اننى أرى البحر أكثر وضوحاً .

ـ هل فى امكانك أن ترى البشر الذين لا نراهم ؟!

ـ لا . . . . لا أحد هنا سوى أراض شاسعة خضراء يحيط بها البحـر الأزرق الجميل الـذى يمتـد بلا نهـاية ، وتختلط زرقته بزرقة السماء .

أثارهم قولى أن البحـر بهـذا الاتسـاع . . . وكنـت أعرف أنهم جميعاً يحبون السباق ويعشقون رمال البحـر الناصعة ويشعر الواحد منهم بسعادة لا حد لهـا عندمـا يقدر له أن يذهب صحبة أبيه أو أخوته الكبار الى البحر خلال فصل الصيف . عندها يظل ولفترة طويلة يحـكى لنا عن هذه الرحلة النادرة وعن السفن الضخمـة التـى تبدو مثل قرية كاملة . وعن الحيتان الهائلة التى فى امكان الواحد منها ابتلاع قارب كامل بصياديه . وعندما يستنفد مخزونه مما سمعه أو رآه يبدأ فى اختلاق أكاذيب أخرى لا يمكن لأى واحد منا أن يصدقها ، لكننا كثيراً ما كنا نتظاهر بتصديقه رغبة منـا فى استمـرار حديثـه ، وعندمـا نمـل

ونرغب فى تغيير الحديث نصيح فيه بصوت واحد . . .

ـ يزى بلا كذب . . . . تحشم ؟!

لكننا نظل جميعاً نشتاق الى البحر ونحبه ، وها هو الآن أمامى بكل اتساعه وجبروته يمتد شريطاً أزرق كأنه قطعة هوت من السماء والتصقت بالأرض .

وأخذت أصيح بصوت عال :

ـ انه الآن يبدو أكثر وضوحاً ، ان باستطاعتى ان أرى أمواجه البيضاء الهائلة !

وانتظرت أن أسمع همهمة أو صوتاً ينبىء عن ان المجموعة ما زالت تتجمع حول الشجرة تنتظر أوبتى أو تستمع الى كلماتى ، لكن الصمت كان يعم المكان . . . لم يأتنى صوت واحد من أصوات رفاقى . . . فى البداية اعتقدت أن حديثى قد أعجبهم وأنهم مبهورين تملكتهم نشوة الاحساس بأنهم داخل المشهد ، ولكن الصمت

طال وطال حتى بدا مثيراً للاهتمام .

أتراهم ملوا الانتظار فرجعوا الى بيوتهم ينشرون نبأ ستوط ضحية أخرى من ضحايا الشجرة ؟! ممكن جداً . . . لكننى سأواصل الرحلة ولتصعقهم المفاجأة عندما انتصر . . .

وقبل أن انتزع نفسى مما كان يبدو أمامى لانظر تحتى وأتأكد من وجود رفاقى أو عدم وجودهم ، تلقفتنى مجموعة من الشتائم والسباب بدت كأنها تنطلق من جذور الشجرة ذاتها .

قلت فى نفسى :

ـ انها النهاية ، ها هو « سلال قلوب » قد أقبل وسأكون ضحية من ضحاياه . انتابتنى

وبدت الشتائم أكثر وضوحاً .

ـ انزل يا كلب . . . . انزل يا ملعون . . . لعنة الله

عليك ؟! كان جسماً هائلاً حالكاً لا أكاد أتبين ملامحه ، يتسلق الشجرة ويتجه نحوى . . . وأغمضت عينى انتظر النهاية ، أتصور نفسى بين أنياب هذا الوحش الذى لا يرحم ، امتلأ قلبى رعباً وأخذت أوصالى ترتعش وطنين هائل يئز فى مؤخرة رأسى ، وتوقف نبضى تماماً وسرعان ما انتابتنى إغماءة خفيفة بدت كأنها النهاية المرتقبة وعندما أفقت وجدت نفى بين أحضانه ، تحيط بى ذراعاه القويتان ، وتملأ خياشيمى رائحة عرقه النتنة ويحرقنى لهاث انفاسه السريعة المتوهجة ويصل الى أذنى رذاذ شتائمه وسبابه .

ـ أيها الخنزير ، لا بد من تأديبك .

ـ بدت الأمور كحلم ، ككابوس مزعج ، وبدأت أشعر اننا بدأنا نسير على الأرض . . . لكننى لا زلت فى قبضته تماماً ، عيناى مغمضتان ترفضان رؤية منظر هذا الوحش ودمعة ساخنة تبلل خدى والشتائم لا تنقطع .

صاح فى بصوت شرس .

ـ هيا استيقظ لتنال جزاءك ؟! سوف تقلع عن الشيطنة مدى الحياة .

وتـراءت الى مسمعـى نبـرات صوت متهـدج أعرفـه جيداً ، صوته خبرته فى كل حالاته ، عندما يكون غاضباً يبدو متهدجاً خشناً حاداً ، ويهدأ عندما يكون مسروراً ، يرق ويصفـو ، ويخفـت حتـى يتحـول الى شيء يشبـــه الهمس .

كان هذه المرة غاضباً ، منفعلاً .

ـ هه . . . . ماذا فعل هذا الشيطان العنيد ؟

يا الهى ، بدون شك أنا لا أحلـم ، والصـوت كان صوت ابـى وصـورة بيتنـا تتـراءى لى من خلال عينـــى النصف مغمضتين كأنها شبح وسط ضباب . . . لست فى خطر اذن . . . و« سلال قلوب » الذى توهمت اننى بين أحضانه لم يكن سوى وهـم اكتسحنـى خلال لحظـات

الرعب الهائلة التى أفقدتنى صوابى .

وزمجر الصوت الشرس .

ـ لقد وجدته يتسلق « شجرة العفاريت » . . . . انقذته فى آخر لحظة . . . . لو توغل لضاع الى الأبد ، أخبرنى أبنى فهرولت مسرعاً وأنقذته .

ـ هو ذلك الأحدب اذن ؟ أعرف أن الوشاية مهنته ، ما كاد يرانى أقوم بعمل لم يقم به أحد ، حتى ذهب ليحرض أباه ، ذلك السكير المتوحش الذى أفسد أجمل لحظات حياتى ، (معلهش) انتظر أيها القزم سوف ترى من سيقصف رقبتك ؟!

والتهب خدى اثر صفعة حادة ، تتالت بعدها ركلات شرسة متوحشة ، وأحسست بجسدى يتمزق ويد أبى المفلطحة الخشنة تهوى على جسدى كأنها مطرقة حديدية هائلة ، كان غاضباً غضباً حقيقياً ، وعندما يغضب ابى فإنه يبدو مثل جمل هائج ، لا يفكر فى العواقب . . . .

كانت كلماته تتناثر مثل الرصاص . وتبدو كأنها سهام حادة مسمومة .

ـ تغيب طول اليوم عن البيت ، ولا تفكر بشيء ، فقط ترتكب الحماقات ولا تستمع لنصائح أحد . . . . تبدو مثل بغل تأكل وتشرب وتشاكس . . . هل فكرت فى دروسك ومدرستك ؟! طبعاً أنت لا تفكر الا فى جلب المصائب . . . . مالك أنت ومال الشجرة ؟!

ووجدت الفرصة مواتية ، سحبت جسدى المتورم ، وارتميت فى حضن جدتى ، هربت اليها ، فأنا أعرف أن أبى لن يجرؤ بعد ذلك على أيذائى . . . ومنذ ذلك اليوم ظللت أرتعش خائفاً من أن يعاود أبى غضبته . ولكن مرور الأيام تكفل بأن ينسى أبى الحكاية .

واقترب موعد امتحانات الشهادة الاعدادية ، لأتحول الى شخص مدلل ، الجميع يسارعون لخدمتى وتهيئة الجو الملائم لى ، كى أذاكر وأجتاز الامتحانات بنجاح ،

وبدت لهجة أبى أكثر وداً ، وأقنعتنى ابتسامته الدائمة التى يقابلنى بها بأنه قد صفح عنى تماماً .

* * *

فى إحدى الليالى ، ضمتنى جدتى الى حضنها وقالت لى وهى تغالب نوبة سعال حادة :ـ

ـ اسمع يا ولدى ، انت ما تزال صغيراً ولا تعرف شيئاً ، أعرف أنك ستذهب الى مدرسة أكبر ، وأنك بعد سنوات قلائل ستصبح شيئاً مهماً إذا وفقك الله . . . لا تتحسس ذلك الزغب الذى بدأ ينمو على شاربك ، فالوقت ما زال مبكراً بالنسبة اليك ، لكى تدرك معانى الأشياء . . . . ؟! فكر الآن فى أنك ستصبح معلماً أو طبيباً ننتفع بك وأترك هذه الشجرة ، هذه الشجرة مباركة يا ولدى . لكن بركتها تظل حكراً على الذين يعيشون تحتها ، يحترمونها ، ويقدسونها ، ويحافظون عليها ، أما الذين يتمردون عليها ، ويحاولون اكتشاف أسرارها فانها تحطمهم وتغرقهم فى المصائب .

ـ لكنها مجرد شجرة يا « جدتى » ليس فيها شيء غريب ولا تختلف عن أية شجرة أخرى من آلاف الأشجار التى تملأ القرية ؟!

ـ شجرة !! هى شجرة حقاً ، لكنها شجرة غريبة ، هل رأيت شجرة بهذا الحجم ؟ هل يمكن أن تكون الشجرة مثل قرية كاملة ؟! هل تستطيع أن تقول لى شجرة أى شيء هى ؟ هل هى شجرة زيتون أم خروب أم شجرة توت ؟! أنها ليست شيئاً من ذلك ، مجرد كتلة هائلة من الأغصان والفروع والأوراق والسراديب الموحشة .

ـ لكننى استطعت أن أتسلق أقرب فروعها الى الأرض فلم أشاهد شيئاً غريباً ، ولولا ذلك السكير لصعدت الى قمتها .

ـ لقد فعل خيراً يا ولدى ، لو لم ينزلك لكنا فقدناك الى الأبد .

ـ كيف يمكن أن تكون الأخشاب خطرة الى هذا الحد ؟!

ـ ليست الأخشاب يا ولدى ، انما الآخرين الذين لا نراهم هم الذين يسببون الأذى ، هل تعرف (عمك صالح) ذلك الأعمى الأخرس ، الفاقد القدرة على الحركة ؟؟ لقد كان عنيداً مثلك ، قال للناس أنها مجرد شجرة ، نصحه الناس لكنه ركب رأسه وأخذ يردد فى كل مكان ، انها شجرة لا تصلح الا لربط البهائم ، أخذ يسخر منها ويذهب أحياناً ليتبول تحت هامتها الضخمة .

فى الليلة الأولى رجع الى بيته وأخذ يقهقه قائلاً :
ـ إن الشجرة ليست سوى مرحاض جيد ؟!

فى الليلة الثانية ، رجع وهو يشعر بألم هائل يدمر رأسه فى الليلة الثالثة وجده الناس فى الصباح جثة . . . بدون عينين ولا لسان ، كان مشلولاً ، أيضاً يا ولدى .

انه ما زال يعيش ، وأنت تعرفه جيداً . مجرد كتلة من اللحم المترهل لا تفيد شيئاً ، لقد كان عنيداً فسحقته الشجرة وحطمته .

ـ لكننى عندما بدأت الصعود ، أحسست أننى قادر على الصعود الى القمة ، بسهولة ، لم يكن ثمة شيء مخيف صحيح أننى امتلأت فزعاً فى البداية ، لكننى لم أر شيئاً يمكن أن يخيفنى حقاً . . . صدقينى . .

ـ لا أحد يستطيع أن يصعد الى قمة الشجرة يا ولدى ، هذا لا يعنى أن أحداً لم يحاول ، فواحداً بعد الآخر لا تبرح أسماؤهم الذاكرة . . . جاءوا وألقوا بأنفسهم صرعى تحت أقدام هذه الشجرة الملعونة . . . وكان الموت ثمرة ناضجة معلقة فى هامتها الشامخة السوداء ، ثمرة ما ان يلمسها أحد حتى تصعقه وتحطمه دون رحمة ، وسرعان ما تنتصب فى مكانها تنتظر قاطفاً جديداً .

وتضغط جدتى باصبعيها الواهنتين على شحمة أذنى قائلة

ـ ما كان يجب عليك أن تتسلقها ولا حتى أن تبلغ أول فرع فيها ، لكنك عنيد والعناد سيقصف رقبتك !

تصمت جدتى وتطأطىء رأسها ، وتبدو كمن ينتزع ذكرى من أعماق سنوات نائية ، ثم تبرق عيناها فجأة وتكتسب ملامحها جدية لم تتعودها وتقول :

ـ زمان يا ولدى ، جاء أقوام ذوى سحنة حمراء وشعراً أشقر سيطروا على هذه القرية وحكموها زمناً . . . وعندما ولى عهدهم وانتهوا جمعوا كل السلائب من الخواتم والحلى والنقود والأسلحة ، ووضعوها فى صندوق ضخم ، أخفوه فى مكان ما داخل سراديب الشجرة العلوية على أمل أن يعودوا اليه بعد حين ، ويستفيدون منه ، غير أن السنين مضت ولم يعد أحد منهم ، وأغلب الظن أنهم ماتوا جميعاً ، هم أيضاً يا

ولدى حلت عليهم اللعنة ؛ أما أولادهم الذين بقـوا فى القرية ، فقد نسى بعضهم الحكاية والبعض الآخـر كان يعرف الحكاية لكنه لا يريد أن يتذكر أن أجـداده كانـوا لصوصاً ؟!

لقد شهدت بأم عينـى أقوامـاً آخـرين سيطـروا على القـرية . . . جاءِ الأتـراك وجـاء بعدهـم النصـارى ، وظلـت الشجــرة على ما هى عليه ، سراً من الأسرار ، وحاجزاً يقينا شر سكان عالم لا نعرف عنه شيئاً .

ما كان لك أن تتسلقها أيهـا الشيطـان ، فلقـد لقـى متسلقون أبرع منك وأكثر عناداً جزاء ذلك .

وتبدأ جدتى فى التثـاؤب ، ثم سرعان ما يسيطر عليها النوم فيما أظل مختبئاً فى حضنها لا أعرف للنوم طعماً . . . ومنظر الشجرة الهائل يملأ مخيلتى . أتخيل نفسى أتسلـق أغصانهـا كجـرذ نزق وأكشف كل كنوزهـا وأسرارهـا وتحملنى سراديبها الى عوالم أحلم بها كثيراً .

* * *

مضت أيام وأسابيع ، ثم شهور ، لم تقدنى قدماى نحو ذلك الزقاق المترب الذى تتربع فى نهايته الشجرة مثل كائن أسطورى مخيف ، كنت قد غادرت القرية لمواصلة تعليمى فى المدينة ، وأصبحت زياراتى للقرية ، سريعة وعابرة ما كانت تسمح لى بالتجوال أو بالتفكير فى شىء آخر سوى اطفاء شوقى لامى وأخوتى . . . لكننى مساء أحد الأيام الصيفية الرائعة . . . وجدت نفسى مشدوداً بقوة دفع غريبة ، تجاه ذلك الطريق الضيق ، وعندما وقفت عند بدايته . كانت الشجرة تبدو مثل غول مرعب ينادينى وسرت مشدوهاً لا ألوى على شىء ، وعندما وقفت تحتها تملكنى إحساس عجيب ، احساس يؤكد لى بأننى أزور هذا المكان لأول مرة ، وأشاهد هذا الكائن المرعب أمامى كأنه نبت فجأة بدون مقدمات .

نظرت اليها بعينى اللتين اعتدت أن أراها بها ، الا أننى تبينتها لأول مرة حقاً ، مارداً قاتماً يرتفع متوعداً مثل أصبع فى وجه الأفق الشاحب . برجاً كالحاً قميئاً ، أبدياً

مثل الصخـر، سيء الطبع وبعيد المنال ، عملاق يعيش في وحدته المستقلة ويهجر الدنيا والناس

وانتابت البرودة قلبي ، وشعرت بضآلتي في مواجهة هذه الكتلة الهائلة من القتامة ، أنا الذي عشت حتى هذه اللحظة شديد الترفع . شديد الكبـرياء . . . صرخـت ببؤس وانكسار

ـ هل للمارد ، أن يشملني ببعض العطف ؟

لكنه ظل سادراً في صمت ، لا يهتز ولا يتحـرك ولا يبالي شامخاً وسط سماء رمادية ، لا يبـرق فيهـا نجـم ، يرمقني بنظرة اشمئزاز ، وقرف كأنني واحـد من آلاف الديدان أو الحشرات التي تتمسح بجسده الضخم .

وتملكني الذعر ، انتابتني قشعـريرة اهتـزت لهـا كل أطرافي لكن خوفي لم يشلني تماماً وإنما حفزني لمواجهـة الموقف وتحدي اللحظة بثبات عجيب ، لكن لحظة الثبات

سرعان ما تتبدد ، تضيع كأنها لم تكن ، كأنها مجرد حلم من الأحلام الخفيفة ، ويعاودنى ذلك الشعور الحاد باننى ضئيل وبأننى مخلوق لا أهمية له .

* * *

وهكذا تحولت الشجرة الى كابوس يجثم على أنفاسى وكائن مرعب يبدد سعادتى ، وامتلأت أيامى بصورة تلك الشجرة وهى ترتفع فى الأفق وتتحدانى .

وأفسدت على كراهيتى للشجرة الاستمتاع بكل الألعاب التى كنت أقوم بها مع أقرانى ، وأخذت أشعر يوماً بعد يوم بمرارة الكراهية فى فمى ، وتبددت كل تلك اللحظات التى كنت أشعر خلالها بأننى امتلك قدراً من السعادة يؤهلنى لحب الحياة .

كنت أستلقى على فراشى طلباً لاغفاءة لذيذة ولكننى ما ان أطرح جسمى الضئيل على الفراش حتى أهب مذعوراً . وأعدو خارج المنزل ، وتمكنت من رؤية الشجرة فى مختلف أوضاعها وحالاتها .

فى الفجر عندما يبدد ذلك الخيط الأبيض من الضياء قتامة الظلام ، أزحف من تحت غطائى وأغادر البيت خفية لأتأمل ذلك العملاق وأنا أرتجف مرهقاً ، بينما هو يغرس حرابه فى الأرض ليمتص دماء التربة الندية كى يغذى عروقه العجوز . وفى أوقات ظهيرة الصيف الثقيلة ، كان يبدو قطعة من التجهم والعنفوان ، وتنقضى أوقات الظهيرة الحارة والقيظ ، وتنقضى الأزمنة ، وتولى الحياة وتذبل . . . أما ذلك العملاق ذو الأغصان المتشابكة التى تحيط بالقرية كالمخالب ، فيظل باقياً كأنه شىء أزلى لا يفنى .

وعندما تسقط الشمس فى بحيرة الظلام ، وتبدأ الوطاويط العابها الليلية ، فإن هذا الكائن الهائل يبدو كمن يستسلم للنوم ، ينفش أوراقه مثل دجاجة ضخمة تحضن بيضها ، وعبر عتمة الليل الكاملة ، يظل ينتفض انتفاضات خفيفة ويرج أغصانه ليجعلها تستقر فى نهاية الأمر بهدوء . . . . يقوم بذلك كله فى بساطة متناهية

ودونما شعور بالخجل .

إنه يشبه رجلاً عجوز لا مسكن له يأوى اليه ، منبوذ من كل الناس ، ومن أجل ذلك لم يعد يجد فى الأمر أى حرج اذا ما تبول أمام الناس أو مشى عارياً ، فليس هناك من بينهم من يستطيع أن يلومه .

إنه حقاً مثل طاغية ، يقدم على أى تصرف مهما كان نوعه بمشهد من الجميع ، دون أن يجعله ذلك يشعر بأى نوع من الحياء .

* * *

ومثلما يكره الانسان الطغيان والقهر والتبذل والقحة أصبحت أكرهه ، وتعمقت كراهيتى لذلك الكائن المخيف حتى أصبحت هاجساً يومياً يستحوذ على كل مشاعرى واحساساتى وتفكيرى .

وقررت أن أعاود محاولة الكشف عن العالم الجديد الذى تحجبه الشجرة ، كانت الثقة تملأ كل وجدانى ،

وكنت أدرك تماماً ، أننى سأوفق ، وتصورت أنه من الأفضل الا أبوح لأحد بما اعتزمت القيام به ، ذلك أن شيوخ القرية الكسالى الذين وقعوا أسرى ذلك الوهم ، قد يعتبرون اخفاقاً عارضاً بمثابة تجربة نهائية .

واعتقدت إذ ذاك . . . أننى سأجد القوة دائماً فى نفسى لكى أتسلق هذه الشجرة بالذات وأقدم دليلى على ذلك للجميع .

***

وانطلقت الى الشجرة ، لا فى الصباح ولا عند الظهيرة ولا فى المساء ، ولكن فى ساعة السحر المشبعة بالضباب الباهت الخفيف ، وهو الوقت الوحيد الذى أستطيع أن أقترب فيه من الشجرة ، ساعة تحجر فيها الهواء الساكن وتيبست أطراف أوراق الحشائش ، ساعة توقفت فيها حركة الحياة ، فى هذا الوقت بالذات ، فى هذه اللحظة . . . . مشيت صوب الشجرة رأساً ، بعقل فارغ حيث لا أمل فى التراجع عن المهمة ، وحيث لا

نهاية للرحلة لقـد هيأت نفسى على أن عملية التسلـق ، رحلة أبدية ومن الخطأ أن أسمى شعورى فى تلك اللحظة خوفاً وإنما كان على وجه الدقة هو الإحساس بأن شيئاً خطيراً يحـدث وكانـت أعماقـى مليئـة بآلاف الحـكايات والأساطير التى نسجتها أخيلـة العجائـز عن الشجـرة . والتى كنت أعرف أننـى سأكشفهـا وأعيشهـا إن كانـت حقيقة .

وتسلقت الشجرة بسهولة الى أن وصلت الفرع الأول منها رفعت عينى الى أعلى . . . فوقى كانت قمة الشجرة الضخمة بأوراقها التى بدت مزخرفة بألوان ساحرة كانت هذه القمة التى حجبت السماء بعيدة المنال شاهقة مقوسة مثل قمة جبـل عظيم ، وخلعـت عن كتفـى حزمـة من الحبال ينتهى طرفها بخطاف حديدى ألقيت به الى الفرع الثانى ، وكنت أرتفع مستعيناً بالحبل أمسك به وألقيه الى أعلى وهكذا . . . ولقد فشلت أكثر من مرة وأنـا ألـوح بالحبل الى الفرع التالى فيسقط منى فى الفراغ ، وكان على

فى كل مرة أن ألملم الحبل بصبر ، وأرهقنى الأمر قليلاً ، سال عرقى وارتجفت وكدت أسقط عندما ألقيت بالحبل الى أعلى فاحتضنت بعنف فرعاً قوياً من الشجرة . . . وكان جسمى مبللاً بعرق غزير انهمر فجأة .

وعندما هدأت حالتى أخذت أتسلق مرتفعاً آخر فيما كانت الفروع تصبح أكثر نحافة ولم يعد من المستطاع رؤية الأرض ، وتداخلت كل المرئيات أمام ناظرى فلم أعد أتبين شيئاً سوى كتلة من الأوراق المتداخلة تكون عالماً غريباً تستشعر منذ أول لحظة أنه ينطوى على سر من الأسرار الضخمة المخيفة ، وعندما وضعت ثقلى على أحد الأغصان القريبة سمعت خشخشة أوراقه المفاجئة ، واهتز جسدى الواهن ، وكدت أسقط لكننى تمالكت نفسى وتشبثت بكل قوتى بالأغصان الأخرى وهكذا أخذت أصعد حتى وصلت الى آخر وأكبر فرع فى الشجرة .

وهمست قائلاً لنفسى :

ـ من يعلم أى نوع من الحيوانات المجْهولة قد تكون حية وسط هذه الغابة الموحشة ؟!

وابتسمت ، شعرت بزهو هائل يملأ كيانى ، فها هو العملاق ينحنى أخيراً ، وها هى تلك الأمنية الأزلية التى عاشت فى أذهان الناس حلماً من الأحلام البعيدة المنال ، ها هى تصبح حقيقة لا شك فيها .

* * *

ها هى الآن سماء أخرى لم تألفها عينا بشر من قبل ، تفاجأ بواحد من البشر يقتحم أضواءها ويكشف سرها . . . وسرت الرطوبة فى جسمى واقتحمتنى ريح باردة ، تركت آثارها على جسدى كأنها سياط من الجليد .

ونظرت حولى فى الاتجاهات الأربع لهذا العالم الفسيح لم يكن صبحاً ولا ظهراً ولا مساء ؛ وإنما أخذ النور الهادىء ينساب حول الأفق وفوقه كأنه يجاهد ليضىء السماء .

كانت الأرض تبدو مثل قرص كبير مسطح ، لونها قاتم مشوب بالخضرة وعند أطراف ذلك القرص المستدير كانت تتصاعد نحو السماء أعمدة الدخان ، أعمدة صغيرة وأخرى كبيرة ترتفع بالتناوب متبعة نظاماً معيناً . وفى السماء تنداح متفتحة متلألئة كما لو أن فناناً رسمها بفرشاته .

وقلت فى نفسى ؟!

ـ لا بد أن الأرض كانت بهذه الصورة عندما مر الأتراك ومن بعدهم الايطاليون ، لا صبح لها ولا ظهر فيها ولا ليل انما كابوس من الظلمة ينتظر فجراً .

لكن الانسان لا يستطيع أن يكشف كل هذا الا عندما يكون فوق قمة العالم . . . حيث يرتفع بعيداً عن كل الأشياء المألوفة . . ولكن حتى هذه القمة كانت قاسية حقاً ، لا تعرف الرحمة ، كأنها جزيرة نائية زرعت حولها آلاف التماسيح والحيتان المتوحشة حتى تقطع كل صلة لها بالعالم .

وهكذا تساقط كل الذين مروا من هنا واحداً بعد الآخر وبقيت هذه الشجرة خلال الزمن وعبر الأجيال ، مصدر رعب ، وعالماً من الأسرار .

جلست على أحد الأغصان ، كما لو كنت أجلس على كرسى سماوى وبصبر أخذت أتفرس فى هذه الدهاليز العجيبة من الأغصان وأفتش عن كنز الأسرار الذى ظل مختبئاً وسط هذا العالم ربما لآلاف السنوات .

لكن شيئاً غريباً لم تقع عليه عيناى . . . . فقط مجرد عالم من السحر والجمال الاسطورى . . . . ودهاليز مخيفة كونها لحاء الشجر العتيق وهذا كل ما هنالك ؟!

لم تكن هناك أية حفرة ، ولا أثر لصندوق الكنز ، ولا وجود لأى معلم من معالم الحياة الآن أو فى الماضى .

كذبة كبرى اذن ، هى حكاية الكنز والقصر الموهوم ؛ فهنا لا شيء يدل على وجوده أو يعطى الدليل على انه كان موجوداً فى يوم من الأيام .

كانت القمة خالية من أى أثر للحياة سوى نتف صغيرة مبعثرة من ريش ، لطائر ما ، ربما كان طائراً غير مألوف بالمرة وربما كان مجرد غراب ، وربما لا هذا ولا ذاك ؟!

كانت مجرد بقايا ضئيلة لطائر هلك لوحده فى هذه البقعة النائية من العالم حيث لا وجود لمن يفترسه .

اذن لقد قمت بعمل يستحق التقدير ، لقد جازفت باختراق هذا العالم الموحش ، وسوف أعود وأنا أحمل الأنباء ، تعويضاً عن تضحيات السابقين الغالية .

أثارنى الأمر عندما فكرت أننى فى طريقى لأن أقول لهم الحقيقة لا كنز ولا طيور . . . لا موت فى الشجرة ، هذا الكائن المخيف الذى ظل مثار رعب القرية وخوفها وتقديسها لحقب طويلة من الزمن ، ليس سوى شجرة لا تتميز عن غيرها من الأشجار سوى بضخامتها غير المألوفة ، كما يتميز انسان عن بقية البشر بأنه قزم أكثر من اللازم

أو بأنه عملاق أكثر من اللازم .

هذا كل ما فى الأمر ؟!

ما أروع أن أحمل هذه الحقيقة لأبناء قريتى ، ما أعظم أن أبشرهم بها وانتزع من نفوسهم ذلك الرعب الذى ظل يسكنهم سنين طويلة ، رعب خلقته اسطورة تافهة حرمت الناس آلاف السنوات من رؤية عالم رائع قريب منهم لكنهم لا يعرفونه ولا يحاولون معرفته .

جلست ، قبالة فرع ضخم من فروع الشجرة وأخرجت من جيبى مطواة وجلست فى مواجهة الريح الندية التى تحمل النار ووعيد الموت . وابتسمت ابتسامة نصفها سعادة ونصفها قوة وحفرت بالمطواة وسط غصن عمودى ضخم علامة مستديرة خضراء ريانة بالعصارة لتعيش هذه العلامة أزلية على الزمن .

وما ان انتهيت حتى بدأت أسحب نفسى من أخطبوط الأغصان الذى يلتف حولى ، وأغادر هذا العالم ،

الجديد وعندما وجدت نفسى أطــأ الأرض بأقدامــى من جديد ، ربتت على جذع الشجـرة الـذى شاخ فجـأة . وعدت الى الناس أحدثهم اننى أخيراً تسلقت الشجرة ولا وجود لكل الأوهام التى تحاك حولها الا فى رؤوسنا . . . والتى اخترعها شخص ربما كان يكره أن تعيش القـرية دون رعب .

وبدأت أجمـع شيوخ القـرية وشبابهـا حول الشجـرة لأريهم العلامة التى حفرتها .

أما الشيوخ فقد بدأوا يتهامســون ويسخـرون ، فيما أخذ الشباب يتجادلون ويطرحون المسألة بشكل أدخـل البهجة الى قلبى . . . واستمر الجـدل مدة طويلـة . . . جدل أنسانى كل شيء أخذت أشارك فى الحوار ولم يعد يعنينى أن أكون قد تسلقت هذه الشجرة حقاً أم اننى قد فشلت ، المهم الآن أن شيئاً لم يعد يرعب القـرية وان الأطفال يخرجون للعب فى أى وقت يشاءون ، فلم يعد ثمـة ما يخيفهـم ، وعجـزت الجـــدات والأمهـــات عن

اصطناع بديل لتلك الاسطورة المرعبة لأن الأطفال لم يعودوا يصدقون الأساطير .

* * *

فى صبيحة أحد الأيام ، استيقظ الناس على صدى صوت مزمجر ، كان الشباب قد ظلوا طول الليل يتجادلون وعند الفجر ، كان القرار الحاسم . . . توجهوا جميعاً . . . واضرموا النار فى الشجرة ، وهكذا استيقظ النابس على صدى الزمجرة الرهيبة التى اختلطت فيها الأصوات الثائرة . . . بأزيز تحطم الأغصان واشتعال الهامة الضخمة لشجرة ظلت تخنق الأنفاس سنوات طويلة وبشعة . . . وعندما أصبحت الشجرة ركاماً من الرماد ، وبقايا الأغصان والجذوع الضخمة ، كان فى إمكان الناس أن يروا عالماً جديداً لم يكن فى استطاعتهم أن يروه فى السابق . . . . عالم ملىء بالخضرة والجمال متسع ورحب وشاسع . . . . مزروع بآلاف الحقول الخضراء النضرة والأشجار الباسقة الجميلة . . .

ولأول مرة ، أصبح فى إمكان الناس أن يغادروا عالمهم الصغير الكئيب . . . . ليتملكوا عالماً أجمل وأرحب وإذا قدر لك أن تشاهدهم الآن فينبغى أن تنسى كل التعاسات التى كنت تعرف أنهم يعيشونها فى الماضى . . . . لأنك سوف تشاهدهم وقد تحولوا الى بشر آخرين . . . . بشر يمتلكون آلاف الحقول الخصبة وآلاف المساكن الجديدة . . . بشر لم يعد يرعبهم أحد ، لأنهم تحرروا من جميع الأوهام التى كانت تستعبدهم ، وحطموا الحاجز الذى كان يفصلهم عن عالم الحرية . . . ولم يعد هناك خزعبلات أو أكاذيب .

* * *

فهرس

ثمن بيع النسخة للمؤسسات الرسمية 600 درهم

هذا الكتاب

ـ مجموعة قصصية ، بالمعنى الفنى للقصة ، بقدر ما هى محاولة لنفض غبار الامس البشع ـ والنظرة الى الماضى بغضب . لكى تعرف الأجيال التى ولدت مع اطلالة الفاتح العظيم ، أن هذا الشعب قد استطاع ان يتحدى جلاديه وأن يقهر الطغاة والعملاء ، ويدوس على تراكمات الجهل والخيانة والغبن الاجتماعى ، الذى اكتسحته ثورة الجماهير .





الثمن :

300 درهم